

إِبْنُ جَدْعَانَ.. قَصص

نايف النوايسة

إِبْنُ جَدْعَانَ..

قصص

2017



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2016 /10 /4749)

(ص)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا
المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ويمنع طبع أو تصوير الكتاب أو إعادة نشره
بأي وسيلة إلا بإذن خطي من المؤلف وكل من يخالف ذلك
يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

صورة الغلاف عماد مدانات

الطبعة الأولى ، 2017



دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - تلفاكس 00962 6 4778770

ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن

E-mail: dar_yafa@yahoo.com



طُبِعَ بِدَعْمِ مِنْ وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ

2 0 1 7

الإهداء

إلى شقيقي الحبيب:

الأستاذ محمد النوايسة/أبو جاسم

يداً مُصافحة وقلباً ما زال لك مؤثثاً

نايف

كرفء في الكرتونة

دِفءٌ في الكرتونة

من يدري ماذا يكون وراء الباب.. الأفق؟ ماذا وراء الطريق الملتفة كالثعبان حول كل عمارة؟ تبتلعها العيون وتختفي في الظنون.. الانتظار حالة موت مؤقتة، تسكن فيها النفس إلى حد الانسحاق.. الخوف من الآتي هو المسيطر.

أخيراً تدانى أفق الانتظار بعد رحلة طويلة، واستقرت أمام باب الشقة السفلية في العمارة..

قرعَ الرجل الجرس مرةً ومرتين وثلاث وأصاخ السمع منتظراً، وحين لم يرد أحدٌ عليه غادر المكان منصرفاً.. كلمة "مُبارك" على سطح الكرتونة تثير التساؤل وشهية الفضول.. سكان العمارة قلما يتزاوون، وإذا ما التقوا عند الباب الرئيس يتفاجؤون وكأنهم لا يسكنون عمارة واحدة.. يتسائلون على الدرج مثل سوائل فقدت وظائفها الحقيقية في

الحياة.. بارحتهم حميمية الجيران المعهودة؛
الابتسامات العفوية، التحية البريئة، المجاملة
السريعة.. عمارة لها بابٌ واحد بيد أن مشاعر سكانها
موزعة على سقوف منفصلة..

عالمٌ يثير الخوف..

الكرتونة.. عالمٌ ورقيّ غامض داهم سكان العمارة..
شوكةُ الأسئلة الحادة وخزتُ جسم كل شقة فيها..
الكرتونة هبةٌ ريحٍ متسللةٌ إلى فضاءات تخلو من
الاستثناء.. هي صرخةٌ مباغتةٌ في زاوية صامتة..
مضت سنوات رتيبة علا فيها صداً "العادية" على
النفوس، وتحولت العمارة إلى صندوقٍ خالٍ من
الدهشة وارتعاشات الحياة..

مرَّ أولُ ساكن من سكان العمارة بالكرتونة
المتربصة.. عاينها.. لم يعتد على رؤية مثل هذا
الشيء متروكاً هكذا.. مسح نظارته السميكة
وحملق بالكرتونة، علقت عيناه بكلمة "برد" على أحد
جوانبها.. بدت الحيرة على وجهه حول معنى هذه

الحروف.. ارتقتْ نظرأته إلى كلمة "مبارك" تساءل:
ماذا يعني هذا.. باوص بعينيه وهو يميل برأسه يميناً
وشمالاً ثم يقلبُ شفته السفلى دلالة على عدم
الفهم، وفي الأثناء اقترب منه جازاً آخر شدّه الفضول
إلى وقفة جاره.. لم يسلم أو يتكلم.. راح يتأمل
الكرتونة ويرحلّ بصره بينها وبين جاره الذي لا يعرف
اسمه.. التقط كلمةً على الكرتونة وصار يقلبها بين
شفتيها "كستناء".. تبادل الرجلان نظرات باردة
وخرجا متتابعين.. التفتا مرات عديدة إلى الخلف..
الكرتونة ترسم أسئلتها على وجهيهما.. لم يبتعدا
كثيراً وإنما وقف كل منهما على طرف الشارع..
عيونهما مُسلّطة على العمارة، والكرتونة وسواسٌ في
رأسيهما..

ماذا تعني كلمة (مُبارك).. سؤال جازح استقر على
وجوه أهل العمارة.. له دلالاته السارة وغير السارة،
وتطاوحت معانٍ كثيرة عند الكرتونة..

اقتربتُ سيدةً وابنتها الصبية من الرجلين .. عرفتُ
أنهما من سكان العمارة .. طأطأتُ رأسها ومرّت دون
كلام .. قلبتُ كفيها متسائلة عما أصابهما ؟ ما
الذي أوقفهما هذه الساعة في هذا المكان ؟ هل
ينتظرانها ؟ أحستُ بالقرف، فأسرعت مبتعدة
عنهما .. دخلت العمارة وشيطانُ الاستغراب يلعب بها
شرقاً وغرباً ويسوطها بأسئلة لا تنتهي .. عيناها
تصطدمان بالكرتونة إياها .. ألوانها لافطة، والكتابة
عليها بخطوط ملونة .. عاينتها بدقة وحاولت لمسها ..
لكنها خافت .. ساورها شعورٌ غريب فهرولت صاعدة
الدرج، وقد علقت كلمة "مطر" بين شفتيها وأسنانها
ولسانها .. صارت تُحسِّبُ وتُخَمِّنُ: هديةً لجارتنا،
كلمة "مبارك" ماذا تعني، قد تكون شيئاً آخر، ربما
قنبلة .. أعوذ بالله، أعوذ بالله .. خافت من هذه
الخواطر، وابتعدت صاعدة وهي ترشقها بنظرات
هالعة ..

باب العمارة يقود إلى دهليز معتم داخل النفوس..
السكان الذين دبّت فيهم حركة غير معتادة لم
يستطيعوا تنظيم هذه الحركة.. الباب صامت..
يخلو من البصمات والخريشات والتواريخ والمواعيد
وقلوب الحب وكأنه باب سجن..

في ذات الحين اقترب ساكن آخر من الكرتونة وحنى
ظهره ليقف على سرّها.. الجارة فتحت الباب ثم
انطبق بقوة.. التزم الرجل الهدوء واللامبالاة، وراح
يصعد الدرج، لكنه لم يدخل شقته وإنما دلى رأسه
من فتحات الدرابزين ليراقب الكرتونة..

الحركة غير معهودة في العمارة، ويمكن اعتمادها
تاريخاً تؤثق به الأحداث والولادات والوفيات.. هي
حالة بعث جديد وكان عظام السكون والعفاء تخرج
من رميم..

جلبة مفاجأة قادمة من الطابق الأخير وانفتاح
أبواب وانطباقها جعلت الرجل يتوارى خلف باب
شقته الذي جعله موارباً وهرعت إليه زوجته

مستفسرة فأخبرها بالقصة، وشدّها الفضول للخروج ولكنه منعها..

حياة جديدة دافئة تدبّ في المفاصل المتيبسة وتخلق ربيعاً كان ساقطاً من مفكرة الفصول التي تتعاقب على العمارة..

أصواتٌ وضجيجٌ في الطابق الأرضي.. العمارة منذ سنين لم تشهد مثل هذه الحركة.. حلقةُ الفضول حول الكرتونة تتسع.. همهمةٌ مشتركة: هذه الكرتونة غامضة، وإن ما فيها خطير.. كلمة "مبارك" ما زالت تثير قلق أهل العمارة، وربما قلبوا قراءتها على وجوه كثيرة.. لم يكن هناك حوار أو بنت شفة ينبس بها أحد على حين غفلة.. صخب صامت محتدم داخل الرؤوس التي تنوس فوق أكتاف أصحابها ولا يعلم حدته إلا الله وحده.

كلمة واحدة زلزلت سكون العمارة، وأيقظت في النفوس المعتمدة شهية الفضول.

خافوا على جارتهم التي يجهلون اسمها.. لا يعرفون مطلقاً أهى في شقتها أم خارجها؟ غامر أحدهم وقرع الجرس.. لا أحد يرد.. لا أحد هناك.. العيون المحملقة معبأة بالأسئلة.. الأسئلة المزدحمة تنتشر في الفضاء بشكل يكشف عنه التوتر الذي يسكن الوجوه.. أين تعمل؟ ما هو عنوانها.. ما رقم هاتفها؟ من هي؟ صمتٌ مطبقٌ يلغى الجميع.. انتظروها بجوار باب العمارة ساعات طويلة..

لا أحد يتكلم مع أحد.. أجسام متراسة ورؤوس انتظمت بمسبحة الصمت وكأن عليها من النسيان مسحة بلّية.. للصمت لغة أخرى فيها قلق وترقب وخوف وغضب.. هو نار متأججة ويكاد ينفجر شيئاً ما.

لا يعرفون منها إلا بسمتها، ونضارة وجهها البشوش.. هي وابنها يعيشان في هذه الشقة منذ زمن، هذا كلّ ما يعرفونه عنها.. هي لا تعرفهم ولا تحفظ أسمائهم أو ألقابهم.. أمام عينيها هدفٌ سامٍ

هو ابنها..ترعاه بحنوٍ ليكون على منوالٍ تريده.. لا
تتحرك إلا بقدرٍ ولا تخطو خطوةً واحدةً إلا بعقل..
أوقفتُ سيارتها حيث تُوقفها دائماً.. اقتربتُ من
باب العمارة، والسرور يُفردُ أجنحته على وجهها..
عينها تقعان على سكان العمارة الذين بدأوا يلتفون
من حولها.. الدهشة تنفرش على وجهها.. لأول مرة
ترى هذا التواجد الجماهيري الكثيف..
عيونهم المتسائلة مصوبةً إلى عينيها.. سهامٌ فيها
نار الاستعجال..ماذا جرى؟ ما أصابهم؟ لم يكونوا
هكذا؟ تنثال في داخلها أسئلةٌ مفاجئة.. العمارة هي
ذات العمارة التي تسكنها، وهذه ساحتها، والشارع
المؤدي إليها.. لا، لا، أنا لست تائهة.. أسرعُ تجاه باب
الشقة.. وقع نظرها على الكرتونة فابتسمت.. قرأتُ
ما كُتبَ عليها فاتسعتُ بسمتها.. عيونهم متسائلة،
وشفاهُم مُطابقة على سؤالٍ غاطسٍ في الصمت.. ما
الأمر؟ فتحت الباب، وسحبت الكرتونة إلى الداخل،
وأغلقتة..

ياه، ما أجمل غلافه! طال الانتظار يا كرتونتي
العزيزة زمن طويل وأنا أترقب حضورك البهي وجئت
أخيراً.. كنتُ متشككة بحضورك حتى حسبت أن
الأمر وهمٌ في وهم.. أن أكون شاعرة ذات اعتبار
ويُشار إليّ بالبنان . تضحك بسخرية فيها غموض
يشبه غموض أهل العمارة . لا، لا أنا لست في وهم..
الديوان جواز سفر مهم يحملني إلى كل البقاع
الثقافية..

ابنها يبعثر نسجَ الديوان فرحاً.. هدأت حركتها..
عيناه متعلقتان على متراس الباب.. سؤالٌ طافحٌ
بالإلحاح: ما الذي أصاب الجيران؟ أیظنون أن
الكرتونة!!!!...ضحكتُ.. كانت تسمع لجاجهم في
الخارج.. كانوا ينتظرون.. تذكرتُ ما قرأتهُ عن
ليلة"الدخلة" قديماً حينما كانت أم العروس ومن
يهمه أمر الدخلة ينتظرون وراء الباب نتيجة اقتحام
العريس لمتاريس عروسه..

أخذتُ رزمةً من الكتاب وراحتُ تكتبُ عليها إهداءً
ممهوراً بتوقيعها.. حملتُ ابنها الرزمةَ، وفتحتُ
الباب، وراح يوزعُ عليهم النسخ الموقعة..
مساءً..

تهادى الجيران إلى باب شقتها.. كلهم يتسمون..
نظراتهم مختلفة.. أيديهم تُلوحُ بالسلام فيما
بينهم.. قرع أحدهم الجرس..

لم يطلِ الانتظار.. ربما كانت تتوقع ذلك.. ربما
كانوا لا يتوقعون أن تفتحَ لهم الباب، وفتَحَ الباب
والبسمةُ ذاتها تنفرشُ على وجهها.. بثَّتْ لهم
فدخلوا.. كانت نسخ ديوانها بين أيديهم.. نطقوا
بلسان واحد: مبارك..

ابتسمت.. كانت دموعُها الساحةُ تحملُ بشائرَ
الفرح.. قالت بصوت يضحُّ الحياةُ في الصمت: الآن
أحسستُ أنَّ في العمارة سكاناً.. ودفئاً من شمس
مباغطة.

عيون علم الطريق الصحراوي

عيون على الطريق الصحراوي

تنفّس صُبحي حين راحت الشمس تمسّط شعرها
الذهبي على نافذة غرفتي.. اخترتُ بذلة كحلية
تليق بلقائنا مع الوزير ولبستها ببطء شديد يدلّ
على أهمية اللقاء.. لم أبال كثيراً بنظرات زوجتي
التي غرست عينيها بالبذلة وتشممت العطر كلما
اقتربت مني.. الارتياح يفترش وجهها بشكل فاضح،
ومن خلال درايتي العميقة بها فإنها لا تحتاج إلى
لسان وشفّتين لترفع صوتها في مثل هذه الحالة لأن
أسئلتها الصامتة تداهمني من كل حاسة فيها،
أريتها بطاقة الدعوة فارتاحت.. اكتسى وجهها
المتحفز ابتسامة طفل، وأغلقت الباب خلفي.

أخذتني الطريق إلى مكان اللقاء وكنت حريصاً
على ألا يتغبّر حذائي وملابسي بخاصة وأن اللون
الكحلي شديد العشق للغبرة.. وصلت القاعة
وتراصصت مع آخرين سبقوني.. كنا نسخاً

متشابهة في اللباس والجلسة والحركات والنظرات
الباحثة المستطلعة.. مرّت ساعة ونيف من الانتظار..
تعلقت أنظارنا على الباب الرئيسي لقاعة اللقاء..
كنا نرصد بالسمع والبصر كل نأمة قادمة.. هناك
من ينظر لساعته، وهناك من يطفو قلقه فوق
شفتيه أو تقاطيع وجهه، وآخرون يخرجون هواتفهم
الخلوية ثم يعيدونها دون إجراء مكالمات، أما أعقاب
السجائر فقد ملأت المنافض وتحول المكان الى ما
يشبه المقهى.. يُفتح الباب ويطلّ منه شاب أنيق
ارتسمت على وجهه بسمة مُفصّلة لم نفهم معناها
بداية الأمر وأعلن: عُذراً يا جماعة، معالي الوزير
أجل الاجتماع.. حالة من الصمت تداهم الجميع..
نظراتنا مخضلة بالاحتجاج.. انصرفنا تباعاً..

بعد فترة منذ ذاك اللقاء المُجهض طُلب منا نحن
المعنيون أن نتواجد فالوزير بالتأكيد قادم.. تحايلنا
على خيبة الأمل التي أصابتنا في المرة السابقة.. تأنق
كل واحد منا كما لو أننا في ساعة عرس جماعي..

كان الطقس في المرة السابقة بارداً جداً ومائطراً في حين كانت القاعة دافئة وداعية للاسترخاء والطمأنينة وهي الآن كما كانت، ولولا دخول الموظف علينا ومعه نبأ تأجيل الوزير للقائه معنا لما بالينا مطلقاً بالأمر ولمكننا في هذه القاعة حتى نهاية الدهر..

نبأ التأجيل الهابط فوق رؤوسنا مثل ضربة عصا تأتيك مُبَاغِتة في لحظة غفلة.. جررنا أقدامنا غاضبين.. لامست أنوفنا برودة الثلج فلسعتها بشدة، ورفعنا أشرعة الغضب على سوارى ألسنتنا، وكان الوزير محور السباب والشتائم والغضب..

مرت أسابيع عدة ونحن نتندر من هذه الواقعة؛ جاء الوزير غاب الوزير انشغل الوزير.. أصبحت هذه الواقعة جزءاً من تاريخنا الاجتماعي وهي مرشحة بأن تدخل مذكرات أي واحد منا.. الذاكرة اللعينة لم تعد بيضاء بريئة وإنما صارت تستفزنا بقصة اللقاء كلما لاقى أحداً الآخر..

نسيت هاتفي مفتوحاً في الصلاة.. جرسٌ مع الله اكبر.. أغلقته.. ثم جرس آخر فخجلت من نفسي.. انتهت الصلاة واتصلت من الرقم.. مباشرة: غداً اللقاء مع الوزير، فقلت بعصبية: هذه المرة ستكون الأخيرة، ولن ألبى الدعوة للقاء هذا الوزير أو غيره.. كنت أتحدث على ما يبدو مع نفسي، فالشخص القابع وراء الصوت مُسلَّحٌ بقدرة هائلة على تحمّل ردّات الفعل وهي سِمة من سمات مرافقي عليّة القوم إذ يتحول أحدهم إلى (رابوت) أنيق، وليس من بمرمجه التوقف عند الانفعالات أو نقل براكين الغضب..

تقاطرت الوجوه إلى القاعة التي تعلوها قفلة، وتعفنت من الانتظار.. ليست بحاجة إلى تعارف فهي من عُمّار المكان وأدمنت فيه مضغ الوقت واجترار الاحتجاج، ثم الخروج بلا طائل..

يطل الموظف من بين مصراعي الباب ويعلن: الوزير الآن على الطريق الصحراوي.. رفعت صوتي هذه

المرّة: يعني هو قادم إلينا؟ ابتسم الموظف وغادر دونما كلام.. تجولت بين الوجوه التي كستها ابتسامة غامضة، وقد تكون بلا معنى غير أنني مُدركٌ معناها في مثل هذا الحبس الاختياري.. دارت أحاديث شتى بين الحضور حول أحداث الساعة من المشروع الصهيوني في العالم والسياسات الاستعمارية التي تمّ تحديثها، إلى أزمة المياه وارتفاع أسعار الوقود ومطرقة الفساد التي تجعل الحليم حيران، ما عدا اثنين كانا يتهامسان على نحو يؤكّد أنّهما ليسا في القاعة، وعلمت في ما بعد أنّهما اتفقا بالحروف الأولى على صفقة بيع ارض على شارع تجاري.. تحولت القاعة إلى منفضة سجاثر.

يُفتح الباب وتهرع العيون إليه.. يدخل الشاب بوجه يقطر هذه المرة أسىً وأسفاً.. شفتاه جافتان.. ولسانه متردد بين شفّتيه.. صوته خافتٌ وبالكاد يُسمع.. عيناه ترمشان بلا توقف.. حركة أصابعه تشير إلى أمر جلل.. قال أحدهنا: (خير إن شاء الله، اكفِ شرّك

يا رجل؟ قال: تعديل وزاري!! قلت: يعني؟ قال:
الوزير كان قريباً من القاعة لكنه عاد إلى
العاصمة.. قال أحد العجائز وهو يهيم بالمغادرة:
(مسكين، يعني مضّاها على الطريق الصحراوي!!)
غادرنا المكان مثل فقاعات هواء منفجرة على
السطح.

ليالٍ بلا كفء

ليالٍ بلا دفء

كلما نظرتُ إليه مستعطفَةً، ازدادَ وجهه صمتاً
ووحشةً وامتقع حتى يخالط سمرته كثيرٌ من
السواد، فأتوقع منه شيئاً ما، ولا يلبث أن ينفجر:
مولود جديد! ألا تكفين عن هذا (الكار) القاتل! أف
من هذا البيت ومن فيه، ثم يؤشر بأصبعه نحوي
حتى يكاد يغرزهُ في عيني: أف لك مليون أف!

كالعادة، ألتزم الصمت وأرخي بنظري لينفرش
على وجه الطفل.. وجهه جميل، وفمه الصغير يبحث
في الفضاء عن صدري.. زوجي العجوز منهكٌ
وضائع بيني وبين الطفل.. يحكُّ أرنبة انفه ثم
يهرش وجهه المتغضن ويجلس متهاكاً على وسادة
مهترئة وكأنه جبلٌ هدّته صاعقة..

الأيام تجلدني بسياطها المؤلمة وقد تكوّم بيني وبين
زوجي ولدان وبنتان وفجوة من العمر تربو على
الثلاثين، وليس هناك من شقّ نرى منه شمس الغد.

نوبات السعال الناشف تعاود زوجي بين حين وآخر،
ويزداد نحولاً، وبدأت أقرأ في عينيه الذابلتين رسائل
النهاية.. أنا حزينة عليه.

لم تمضِ شهور حتى يُقعِدِ المرضُ زوجي في
الفراش.. كان يتلاشى وفي ليلة باردة يلفظ أنفاسه
الأخيرة.. يصرخ الأطفال الذين يتحلقون من حوله
ويولولون.. عيناى الدامعتان بوابتان مفتوحتان
على الموج الذي تلامس حدته أقدامى.. وهم يحملونه
إلى المقبرة بدأت دوامة الحياة تُؤرجحني وأطفالي
بعنف.. ليس هناك مظلة تحميني من عاصفة الآتي.
البحر لا يرحم.. وأشرعتي الهشة عليها أن تقاوم
التيارات المتعاقبة.. كوم من اللحم بين يدي
والليالي تزداد برودة وتنهشني بصمتها الثقيل..

يكبرون..

مثل الورد الذي يصبص من ثقوب العتمة
ينتظرون الشمس.. ندى الحياة يحثّ عيونهم على

إلقاء أستار الوسن.. وتستيقظ رغباتهم من أكمام
البراءة..

يكبرون.. وتتشابك أمامي الطرقات..
وعلى كف الحياة تتطاول أعناقهم.. الصمت
والخوف والانتظار أصدقائي في الليل والنهار..
والرجاء حلمٌ لذيذ يقفز من وسادتي كل مساء.
تحصل الأولى على معدل عالٍ في الثانوية العامة
مكّنها من منافسة أبناء الذوات على بعثة في كلية
الطب، وصرتُ أضحك من هذه المنافسة العجيبة،
ولسان حالي يقول: ومن أنا حتى تنافس بنتي
هؤلاء؟ غرفة لا تصلح للدواب، وبالكاد نجد رغيف
الخبز الحاف.. الزوج مات ولنفترض أنه حي فما
الذي يمكن أن يفعله مع الحيتان.. لا، لا منافسة غير
معقولة.. قلت لها ناصحة: يا بنتي هذه الحياة ليست
لنا! نحن خلقنا للشقاء والتعاسة، يا بنتي لا تبتعدي
كثيراً فالبحر يحتاج إلى مجاديف قوية، تريثي
حتى لا تزلّ قدمٌ بعد ثباتها.

أعرف عناد ابنتي، وأتوقع منها أي شيء، فلا عجب
أن تقول: لن أدرس إلا الطب.. الحياة يا أمي
للجميع.. لا تخافي..

فُرض علي خيار الزحام مع الكبار.. احتلّت ابنتي
المركز الأول في المنافسة، وحاول كثيرون اغتيال
الموقف وسرقة الحلم، فأدركتُ أنّ لي حقاً فتنمّرتُ،
ودافعت عنه بضراوة.. تدخل ابنتي كلية الطب..
انقلاب كبير في حياتنا.. الشمس حين تُشرق تحمل
معها معاني بهيجة.. سنوات وتصبح ابنتي طبيبة..

وكذلك ابني الثاني والثالث، أدخلاني في حلبات
لم يدرُ في خلدي أن اقتحمها! وكل ما كنتُ أفكر
به هو لقيمات أتدبرها لهم، وإحساس بالأمان.. كنت
أظن بأننا من فضلات الحياة ولا نملك وثائق
شرعية تُجيز لنا استمرار العيش فيها.. خارطة
الخوف لعينة، وكأنني بها تُولد مع الخلاص ولا
تفارق النفس.. خلاصة الأمر: حياتنا هي انتظار
النهاية.. هي عبء؛ هكذا رسخ في الذهن حينما

أُكرهتُ على الزواج من الختیار من قبل أخي غير
الشقيق وزوجته اللعينة.. رضيتُ به حتى أخلص من
ظلم الولاية القاسي.. وكان ما كان..

ابنتي الصغرى في عينيها بريق غريب.. تمرّد لا
أفهم معناه.. تحب ألعاب الأولاد، ذات مرة طلبتُ مني
أن اشترى لها طائرة ورقية ولم ينفع معها رجائي
وبكائي: يا بنتي أنتِ لك ألعابك، ليس معنا ما
يكفي للعيش.. لكن أختها الطيبة اشترت لها ثلاث
طائرات.. هذا البريق شدّها إلى الفضاء فاحترت في
فهمه.. كبرت وصارت تفلسف كل شيء، ولا ترضى
بالسائد من المسلّمات، وتعتقد أنها تمتلك وجهة
نظر أكثر منطقية.. كانت تقرأ بنهم، وتكتب على
دفتر خاص بها ولا أدري ما تكتب.. وكثيراً ما أجدها
تحدّث نفسها.. خفت أن يكون جنيّ خبيث لا مس
روحها، فاقتربت منها أكثر وكانت تبتمس لي
وتطبّط على ظهري وتقبّلني على وجنتي وتهمس:
لا تخشي شيئاً.. إذاً، هي مُطلّة على معين مخاوفي..

قلت لها ذات مرة: ستصبحين شاعرة كبيرة،
فتضحك.. أو معلمة، فتضحك ولا تنبس في كل
مرة ببنت شفة وتكتفي بتقبيلي وهي تغادر إلى
المدرسة.. أريكتني بنتي كثيراً وأشغلت ذهني.. وفي
إحدى المرات وقع دفترها الخاص بين يدي، ولا أدري
ما المكتوب في الصفحة الأخيرة، ولكنه مُذِلُّ بتوقيع
غريب شبيه بجناحي طائرة.. ما الذي تريده؟؟

ذات مساء، بعد أن أُعلنت نتائج الثانوية العامة،
عاود البريق الغريب عيني ابنتي هذه.. كانت
تحملني ببسمتها إلى سقوف القلق.. أعرف أنها
تُضمّر شيئاً.. وأحس بالرعب.. كل نهار تظهر به
النتائج الثانوية تزداد دقات قلبي..

قالت فجأة وهي تبحلق في السماء: هدي أن أكون
قائدة طيارة.. يعني كابتن.. تشردقتُ، وجحظتُ
عيني، وانتصب ظهري وكأني (بنت اربعطعش)
وتصلبت رقبتني، وقلت: (هكذا طيرتها مرة واحدة يا
بنتي، الله يخليك، على الأرض أحسن، وأنت عارفة

بالحال..) واصلت ابنتي: نعم، كابتن.. وأشارت إلى السماء وأطلقت صوتاً من بين شفتيها، يعني أنها ستطير في السماء.. فقلت راجية: يا بنتي، الله يرضى عليك، خرينا على الأرض.. قالت: الفضاء ملك للجميع يا أمي.

الصمت والدموع والخوف، وابتسامة ابنتي سادت الموقف.

وطارت ابنتي الصغرى.. وطار من في العش كله، وها أنا في مضجعي البارد أمضغ الوقت وأتوسد مخدة الانتظار.. مضى زوجي العجوز وتركني في عين العاصفة.. أنا في العاصفة ذاتها منذ ولدت، واستطعت أن أصل إلى مرفأ الأمان مع أولادي وأحفادي.

أحن إلى غرفتي الكئيبه وشجرة الخروب العتيقة المنحنية فوقها.. مللت ضجيج المدينة.. وتعبت من سواقي الذكريات التي تتفلى في من كل حذب

وصوب، وفي كل مرة يلتقون عندي استعطفهم:
احملوني إلى الغرفة..
واقف عند الباب المهترئ والعتبة المشرّخة والمزراب
وأسرح بعيداً مع زمان يطلّ من الجدران.. ليالٍ
تجردت من الدفء.. صمت ثقيل..
وببطء شديد، مثل كل مرة، أركب أقرب سيارة
من سياراتهم.. وأغمض عيني.

كان في الزوبعة وحيداً..

كان في الزوبعة وحيداً..

منذ رأيته وأنا أقرأ في وجهه احتمالات مبكرة..
عيناه ترمشان بسرعة لافتة.. فمه المختبئ تحت أنفه
الطويل المدبب وذقنه الممطوط ينثر كلاماً
كاللهب، وبدا لي أنه من ذاك الفصيل الذي لا
يعجبه العجب ولا الصيام في رجب.. لم تترك سنوات
عمره المتراكمة بصماتها المفزعة عليه.. جبينه
أبيض لم يتغضن، ووجنتاه متوردتان وكأن وجهه
لفتى في الأربعة عشر من عمره.

كنت حريصاً على مراقبته من الوهلة الأولى، ولم
يغب عن عيني إلا حين توقفت الحافلة واندلع منها
الركاب للتخفف من أعباء الرحلة.. استراحة
صحراوية تتلقف الجميع.. بحثت عنه فلم أجده..
عيناى تمسحان المنطقة شرقاً وغرباً وتمضغان
أطراف الاستراحة، وأنا أتساءل: أين اختفى؟

كان الناس يتباعدون عن وهج الشمس التي
انقذت من الشرق، ويلوذون وراء كل ذي ظل إلا
ذاك المخلوق.. خمنت أنه معتو، مريض أو ربما ميت،
فقد انزع في وسط الشارع، والشمس بكل قواها تصب
أشعتها الحارقة عليه.. كان مستلقياً على فراش
غير وثير، وتدثر بغطاء بسيط وغطى رأسه غير آبه
بمن أحاطوه بعيونهم..

اقتربت منه ورفعت الغطاء.. ضحكت، وحزنت..
غضبت.. قال له أحد الناس: أنت في وسط الشارع،
أنت في خطر، أنت (ستُدعس)، ستموت.. كان يلوح
بيده رافضاً وغير مكترث..



هدوء مسيطر على الساحة..
قفز شاب من رصيف آخر.. دنا من الختار الذي
كان يشخر.. مرت سيارات مسرعة من حوله..
شاحنة هادرة تتحاشاه.. حاول الشاب معه.. طرده

وأحكم الغطاء فوق رأسه وهو ينثر شتائه على
الجميع..ابتعد الشاب وهو (يشوّح) بيديه..



شاحنة طويلة تخضّ الشارع خضاً تقترب من
المكان.. منبهاتها تفجّر في الأذان كل ينابيع الخطر..
سائق الشاحنة المتوثبة يعاين من بعيد هذا الملقى
في الساحة ويظنه كيساً حملته الريح من مكان
سحيق.. وكلما دنا السائق يكبر هذا الشيء الملقى..
فيرسل منبهات شاحنته لكن دون فائدة.. داس
الكوابح بقوة وأثارت عجلاتها زوبعة من الغبار المشوب
برائحة الكاوتشوك المحترق.. اللحظة تشبه حلماً
مزعجاً.. الاختيار بين العجلات الأمامية.. كان
مطمئناً وربما كان يحلم ويبتسم في أثناء الحلم..
قفز إليه الشاب فوجده يتشاءب وكأنه أفاق من نوم
عميق.. انتهر الشاب: ماذا يحصل؟ ما هذه الضجة
التي أحدثتموها حولي؟ ابعدوا عني هذه الخردة التي
أحطمتوني بها.. السائق يستغرب والناس

المتجمهرون يشفقون على الختيار، وهو ينسل من
تحت الشاحنة مثل فراشة تغادر شرنقتها..



وقف الختيار.. كانت الشاحنة ترمقه بكل جسمها
الكبير.. اكتشف أنه كان قاب رمشة وأختها من فم
الموت.. انتفض فرعاً ثم ابتسم فنفض فراشه وتوجه
إلى الحافلة وكأن شيئاً لم يكن..



أحاطت به عيوننا المندهشة.. لم يبال.. صعد إلى
الحافلة واندس في كرسیه وراح في غفوة مدهمة
وكأنه لا يرى أحداً..



قليل هم الذين استقرت في أذهانهم حروف تلك
اللحظة.. ركاب الحافلة يتشاءبون.. نام معظمهم..
الختياري شخر.. هو غير معني بأحد كالأساطير
التي ترتحل معنا من آلاف السنين.

ابن جڳعان..

ابن جدعان..

لم يبقَ أحد.. من جيلي لم يبقَ أحد؟ صرخة
مدوية غارت في داخله.. لقد ابتلعتهم الآفاق وغاضوا
في الغياب..

من يأخذني من هذا الضيق الخانق؟ لقد أطبقت
الجدران على عظامي وكأنني في خندق؟
آه، اشتقت إلى عالم الخنادق، كانت لي فيها حياة
منذ الشباب!

حياتي الآن نهار تائه على رصيف الانتظار..



عيناه مثبتتان على شق في الباب.. صرير الباب
يُوحى بأنه سيفتح.. الصمت سيد المسافة بين
الاثنين.. تجاعيد وجهه الأسمر فيها سلال من
كلام.. أغمض عينيه للحظة وحلّق في معارج النفس
الرحبة، كم يعشق تلك المعارج! وتمنى لو يمضي

العمر مُغْمَضُ العينين ليتحاشى الاصطدام
بالواقع.. رأسه المثقل بالسنين والأحداث يتأرجح فوق
صدره مثل رقاص الساعة، ويتلمسه ليستجلب منه
شعرة واحدة لعله يبتسم.. كان ممعناً في الرحيل
خلف هذه الإغماضة الطويلة..

(يا به، يا به..) سلسلة ذرعها مليون دنيا تُخرجه من
هوة الجب.. يفتح عينيه ببطء شديد فيلظى ابنه
الكبير مُلطياً بالباب ولا يبرحه.. يا به، يا به.. سهام
مسددة صوب صمته المُطبق.. صراع متصاعد بين قاع
الصمت ورشاء ابنه الذي يصر على سحبه إلى شرفة
الحضور.. هل يفتح فمه الناشف، هل يحرك لسانه،
هل يلحق على الأقل شفتيه؟

الصخرة في الوادي تقفز أمام عينيه كلما
سمع (يا به، يا به).. يراود النسر دقات قلبه كلما دنا
منه.. الصخرة والنسر منحوتان من حروف الحرية
ومعنى السماء.. يأتيه من بعيد حفيف شجيرات على
أكف نسيمات الوادي وخيرير الماء المندلق من قم

النبع، كلها تحشه على الاستواء فوق سطح العمر والاستجابة لنداء اللحظة.. يرفع رأسه ببطء وكأنه استيقظ من النوم للتو ويضغط على عينيه لتتسع قدر المستطاع.. يتململ فمه في قبضة الصمت وينقذ لسانه من بين شفثيه وهو يتلمظ ببعض كلمات: (نعم يُبْه!!) يبتسم ابنه ويتقدم خطوة: ألا ترافقني إلى القرية، إلى دارنا العتيقة التي تعرفها؟ رقصت في قلبه الخواطر واستندت خلايا جسمه تطلب الدماء مثل جداء دبّ فيها نشاط مفاجئ وصارت تتقاذف من صخرة إلى أخرى.. أحسّ بقيود البيت الجديد تتكسروتنزاح.. رفع رأسه من قاع الجب وتشبث بسلم البشرى وقال: نعم، نعم.. هيا بنا.



الطريق إلى داري القديمة هي الطريق إلى روعي.. هناك أمام الغرفتين الصغيرتين سأواجه الشمس بلا حواجز وسأجد بصماتي على الصفاة الممتدة من باب الغرفة الشمالية حتى سلسلة الحجارة التي خبأت

بين بعض حجارتها شعرات من لحيتي وقصاصات من
شعر رأسي وشفرات الحلاقة وأشياء كثيرة أجدها
متناثرها وأدسها في هذه المحفظة البرية، وأعين
شجرة الصبر التي ألقْتُ أوراقها العريضة على
السلسلة وقد أدمنتُ الصبر وأنا انتظرُ ثمارها وهي
ترحل من اللون الأخضر إلى الأصفر فالأحمر..

سأبدأ من جديد مع صخرتي لأعلق عينيَّ على قمة
الجبَل إلى أن تقعا على نسري الذي كان يرافقني
الرحيل إلى المدى الممتد.. إلى سنوات مضت وقعتُ
على خطوها وشماً محفوراً بالروح ومختلطاً بدمي
وعشقي للحياة وولوعي بالترقب والانتظار..



ها نحن يا أبي قد وصلنا..
نقلتُ نظري هنا وهناك.. تشرّبتُ المكان.. ابتسمتُ
وقلت: لا إله إلا الله، كيف وصلنا والطريق طويلة؟
قال ابني: تركتك مع نفسك وأعرف أنك سبقتنا

هنا ولم أشأ انتزاعك من عوالمك.. قلت: إذاً، خذ
بيدي إلى صخرتي الغالية، فهناك ستجدني كاملاً.



لم ينتظر حتى ينبس ابنه ببنت شفه وإنما تأبط
عزمه القديم ورميم شباب وحمل نفسه على ساقيه
الضعيفتين اللتين حضنتا أربع رصاصات من حرب
كان له فيها (هيل وهيلمان)، وتحايل على المرتقى
الوعر وصعد.. الوادي يضجّ بالصمت والحياة
والذكريات، فامتلكته المشارف شرقاً وغرباً، وانثالت
إليه الطيور الباحثة عن وكناتها، والفرشات
الحائمة فوق هامات الزهور البرية والشجيرات التي
استوطنت المكان..

هنيهة، ويمتلئ الفضاء بحفيف أجنحته.. نسره
الحبيب يحوم حول الصخرة ويلوّح له بيديه.. وكأن
النسر يناديه ويومئ إليه ليرحل معه..

أَغْمَضْتُ عَيْنِي وَلَحَقْتَهُ فَطُوبَى الْمَسَافَاتِ أَمَامِي.. أَنَا
الآن فِي خَنْدَقِي الَّذِي التَّحَفَّتْهُ مِنْ كَفَارِ عَصِيَّوْنَ
حَتَّى الشَّيْخِ جِرَاحٍ، وَمَعِيَ جَسْمِي بِرِصَاصَاتِهِ الثَّمَانِ..
... صَبَاحٌ لَيْسَ كَمَثَلِهِ صَبَاحٌ وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ
بَشَرٍ.. الْعَدُوَّ أَمَامِي سَرِبَ غَرِيْبَانِ تَغَرَّزَ مَخَالِبَهَا فِي
الرُّوحِ.. عَدَلْتُ رَشَاشِي وَأَطْلَقْتُ عِدَّةَ (صَلِيَّاتٍ..
تَسَاقَطَتِ الْغَرِيْبَانِ مِثْلَ الذَّبَابِ.. بَقِيَ الرِّشَاشُ
مِلْتَصِقًا بِي.. ارْتَخَى جَسْمِي وَسَقَطَ فِي بَرَكَةٍ مِنْ
الدَّمَاءِ.. الرِّشَاشُ عَلَى صَدْرِي حَرَزًا وَشَهَادَةً..

أَيْنَ ابْنِ جَدْعٍ؟ أَيْنَ ابْنِ جَدْعٍ؟ شَفَتَاهُ رَقِيقَتَانِ.. رَأْسُهُ
أَصْلَعٌ.. عَيْنُهُ الْيَسْرَى الْمَطْفَأَةُ مَغْطَاةٌ بِجِلْدَةٍ سُودَاءَ..
يَزْحَلُّ نَحْوِي بِسَمَةِ خَبِيثَةٍ.. انْتَفَضَتْ مِنْ قَمَقَمِي
وَلَبَسَتْ لَبُوسَ التَّحْدِي، أَدْرَكَ مِنْ فِي الْمُسْتَشْفَى بِأَنْنِي
لَسْتُ سَهْلًا، وَلِسَانُ حَالِي يَقُولُ: وَمَا يَصِيبُكُمْ إِلَّا مَا
كُتِبَ لِلَّهِ لَكُمْ، نَحْنُ خَلَقْنَا لِلْمَوْتِ يَا نَاسَ، وَقُلْتُ
بَثْقَةً: أَنَا ابْنُ جَدْعٍ، مَا الْأَمْرُ؟ اقْتَرَبَ مِنْي أَكْثَرُ وَقُلْتُ
فِي نَفْسِي دَنْتَ سَاعَةَ الْمَوْتِ، لَكِنَّهُ طَبَطَبَ عَلَى ظَهْرِي

وقال بلكنة تشبه الأطفال: جدع ابن جدع فعلاً،
ومضى مع غربانه..

أغمضتُ عيني وعدتُ أدراجي إلى الخندق
واسترجعت ما جرى، فقلت وأنا أطلق بسمة فاضحة:
أنا عاقل أم مجنون؟ خمسة وثلاثون من الأعداء
يتهاوون بضغطةٍ على زناد رشاشي؟! يا الله، يا ابن
جدعان لو تعود الأيام كرة أخرى!!



يا به، يا به، تخرجني من تحت ركام السنين وازدحام
الذكريات.. افتح عيني.. ما زلت فوق الصخرة
أمارس الحياة.. تلفتُ باحثاً عن النسر في الآفاق..
كان قرص الشمس يتهاى للدخول في معطف الليل..
أسلمت يدي لابني وفارقت الصخرة..



تتسللت دمعة من عينه وهو يقترب ثانية من
الغرفتين، لم يدخلهما وإن شدَّ الحنين إلى ذلك..
قلبه يدق بشدة وهو يحشر نفسه بالسيارة.. المدينة

حوت كبير تضيع التفاصيل في بطنها.. يحس
بالاختناق كلما اقترب من منزله الجديد.. يغمض
عينيه وهو يخطو إلى الداخل..



كان الجميع فرحين به.. يبتسمون، يضحكون
يمارسون حياة عريضة وهو غارق في الصمت ويجتر
أشلاء ما كان، ويمارس الرحيل صامتاً.

ریکا.. لنز عود!!

ربيكا.. لن تعود!!

الوشم الذي أحاط بحنكها السفلي، طوّح بنا بعيداً بعيداً إلى سنين غارقة في البراءة وعالم أولئك الذين غادرونا ولم يتركوا وشماً مؤذياً على سطح حياتنا.. كانت تهذي وبالكاد نفهم من كلماتها شيئاً.. عيناها شاخصتان مغروزتان في ملكوت آخر.. شفّتها الرقيقتان ناشفتان.. ولسانها ينتح بعض الرطوبة إلى شفّتيها..

ربيكا.. ربيكا، كلمة ترددها دون ملل.. ناديتها: خالة أم جمعة.. التفتت إلي بوجه مصفرٍ عرقته الحمى، ورمشت رمشتين وبدت علامات الاستفهام على تقاسيم وجهها، ربيكا، ربيكا، تواصل أم جمعة.. تساءلت ورفيقي: ماذا تعني بربيكا؟ قالت قريبة لها لازمنا منذ سألناها عن أم جمعة: ربيكا، صديقة أم جمعة، وهي أمريكية.

عدتُ إلى وجه أم جمعة الذي افترشته السنين
بخطوطها المتداخلة لأقرأ فيه سر العلاقة مع هذه
المرأة الغريبة! ولم أُمسك بخيط واحدٍ يفصح لي
عن شيء.. فما سرُّ هذه العلاقة بين سيدة أمريكية
يانعة الشكيمة مع واحدة مثل أم جمعة مطروحة في
منطقة منسية.. عافتها السنين وغاض من وجهها
الشباب، وانفضَّ من حولها الأهل والأحباب؟؟ لا بد
من شيء ما وراء هذا التقارب..

التفتُ نحو رفيقي وتساءلت مستغرباً: رفيقتها
أمريكية؟ قال رفيقي وهو يبتسم: والله في خلقه
شؤون!!

لم تفارق أم جمعة بلدتها إلا (للشديد القوي).. ولا
تعلم إن كان هناك عالم غير عالمنا الذي تراه..
ريفية في ملابسها وملامحها ومحتويات بيتها، وهي
حريصة كل الحرص على (طابونها) لأنها لا تثق
بخبز (السوق)، كما أن عينها لا تبارح فرنها الذي

تشوي فيه الفخارات التي تُشكلها.. ثمانون سنة
كومتها في هذه الجغرافيا البسيطة.

ومنذ مات زوجها وهي تمضغ الانتظار دون ملل
وعينها على الطريق التي تحمل إليها ابنها جمعة..
وقد وجدت في فخاراتها المشوية التي تبيعها
للاستراحة السياحية باباً للرزق.. قناعة ما بعدها
قناعة..

ريكا..ريكا، مؤشر خطير على شدة وطأة الحمى،
أصابها المرتعشة تحرص على بقاء عصبها على
رأسها وكأنها بطاقتها الشخصية.. ونظرتُ لرفيقي
وقلت: لا بد من نقلها إلى الطبيب، وسألنا قريبتها
عن أقرب مركز صحي..

وهي في السيارة وريكا لم تفارق فمها الناشف
وكانها تعويذة ترددها ضد الحمى.. عرقها البارد
ينزّ بشدة.. جسمها يرتجف.. قلت: لحظات وسنكون
عند الدكتور يا أم جمعة..

لم تكن معنا ونحن نواسيها.. رأسها المختفي داخل
قناعها الأسود وعصبتها المربوطة من الخلف مسكون
الآن بهذه (الرييكا)، والغريب بأنها لم تذكر ابنها
جمعة مطلقاً.. ألهذا الحد تسيطر عليها رييكا؟ وأي
سرّ تخفيه عنا هذه العجوز؟!

في مثل سنّها المتطرف لا فائدة من أي شيء إلا إذا
كان يُقربها من خالقها.. أم جمعة مع وطأة الحمى
تهذي، لذلك علينا الانتظار لنرى، مع أنني لا أشك
مطلقاً ببساطتها، لكن أكثر ما نخاف منه أن هذه
البساطة تنطوي على غموض في إحدى زواياها، أو
تعقيداً يشفّ عن شخصية لم نتوقع منها شيئاً أبعد
مما نراه..

ما زلتُ أتذكر ما قالتة قريبتها؛ ذات سنة زارتها
رييكا، و(أكلت بعقل أم جمعة حلاوة)، صوّرت الفرن
والفخار، ومازحت أم جمعة بعربية مكسّرة وراحت
المسكينة تضحك بهستيريا، واقتрحت عليها ذات

لحظة: ما رأيك يا أم (جُمأة) تعطيني الفخار وأنا
(ابيؤه إلْك...) ووافقت أم جمعة بشدة..

احتكرت ربيكا أم جمعة وفخاراتها؛ العجوز تحرث
ليلاً نهاراً، وربیکا تحمل البضاعة وتسوقها كيفما
تريد.. شكلٌ من أشكال العبودية أو عمل السخرة
كالذي يستخدمه عدوٌ ما مع أسراه مقابل (ملاليم)
قليلة.. وأعرف أن ذاك العهد قد انقضى حين كان
الإنسان يُرتهن لإنسان آخر تحت وطأة ظرف ما،
كالذي مرّ من تاريخ الظلم لإنسان إفريقيًا وإنسان
فلسطين حاليًا، ولا ننسى الإرث الاستعماري الأسود
الثقيل لبلادنا وبلاد كل المستضعفين.. ربيكا في
يقيني مستعمر جديد على نحو ما نرى من علاقتها
مع أم جمعة!

سأل الطبيب: وأين ربيكا، أم جمعة تهذي باسمها؟
تساءلتُ: الأمريكية ربيكا؟! ضحك الطبيب وقال:
أخشى ألا تكون أمريكية.. قلت: فمن أين تكون؟ قال:
جاءتني قبل مدة سائحة أجنبية تريد علاجاً، وحين

اطلعت على جواز سفرها قرأت اسم ريكا وبجواره
يهودية من تل أبيب، لا أدري إن كانت هي؟؟؟
صعقة تعجب أدت رؤوسنا من وجه الطبيب، وقلنا
مستغربين: ماذا تقول يهودية!!! هز الطبيب رأسه
وهو يردد: بكل أسف!!

كانت أم جمعة تغط في نوم عميق.. حبات العرق
أضافت طفولة بائدة إلى وجهها البريء.. راقبناها
من بعيد حتى فتحت عينيها.. نادت: ريكا، ريكا،
أين أنت؟! وحملت بنا وسألت: من أنتم؟ قلت: نحن
الذين أحضرك هنا، لا يوجد بيننا ريكا.. ابتسمت
وهي تتلفت، ثم همست: (إخس عليك يا ريكا حين
احتاجك لا أجذك، الله يلعن أبو شيطانك..)

سألها الطبيب: ريكا التي تضع نظارة سوداء على
عينيها؟ قالت: نعم هي. وأضاف: وأحيانا تلبس
(شورت) أبيض؟ نظرت إليه مستنكرة وأجابت: أنت
تعرفها إذا؟! هز الطبيب رأسه علامة الإيجاب..
وسألت أم جمعة: بكم تبيعين الفخارة على ريكا؟

قالت: بدينار. فبادر الطبيب: وربىكا تبيعها بعشرة دنانير. وردّت أم جمعة مستنكرة: مستحيل، هذه صديقتي ولا تضحك عليّ، قبل مدة أهدتني أشياء كثيرة حتى أضعها على الفخارات. قلت: مثل ماذا؟ قالت: تعالوا معي للدار وسترون..

قفزتُ إلى ذهني صورة اليهودي المبتز المرابي الذي يستغل الآخرين في سبيل هدفه الخبيث، ورحت استعرض قصة شايوك المرابي اليهودي في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير.. ضحكتُ من هذا الخاطر العابر، وتساءلتُ: هل يعقل أن تكون أم جمعة متورطة مع ربيكا مثل ما تورط انطونيو وبسانيو مع شايوك اللعين؟! استبعدتُ هذا الخاطر لأن بساطة أم جمعة لم تصل إلى هذا الحد.. لكن لا نعلم بما تفكر به ربيكا اللثيمة!!

أم جمعة الآن كائن آخر، نحلة شبيطة لم يرضنيها التنقل بين الورود لرشف الرحيق وإنما تستعجلنا لنصل خليتها التي ولغت فيها ربيكا.. وكأن الحمى

التي زارتها لم تكن كحمى المتنبي .. عين على الطريق ولسان لا يفتأ يردد: ستأتي ربيكا وترونها .. من بعيد عاينت دارها وطابونها وفرنها وابتسمت سعيدة .. دخلنا (الحوش)، وأسرعت إلى صندوق مركون في إحدى زوايا الدار وأخرجت منه أوراقا وصورا ودفعتها إلينا وهي تقول: هاكم انظروا أشياء ربيكا، أنا أحبها كثيراً. قلتُ لها: يا أم جمعة صديقتك ربيكا يهودية وتضحك عليك .. قالت: مستحيل، أنتم تريدون قطع رزقي، (الباب قدامكم الله يسهل عليكم ..) اختفت الكثير من تجاعيد وجهها الذي تعرق وأحمر، واشتد هيكها المتراخي، ونهضت بهمة غريبة مثل نمرة شرسة تدافع عن أولادها ..

أدركنا أن أم جمعة ليست سهلة، وفي الوقت نفسه لم تكن ربيكا سهلة أيضا، لذلك لا بد من العقل. قلت: يا خالة سنغادر لا تغضبي، لكن نرجوك أن تفهمينا والحكم لك ..

خففت من تكشيرتها، وأجلستنا على فراش متواضع، وقالت وهي تسند ظهرها لقنطرة الدار: (هيا فهُموني، تراني ما أفهم..) نظرتُ إلى رفيقي أستعين به، وأشار إلى النجمة السداسية، ابتسمتُ وقلتُ: ما رأيك باليهود؟ قالت: أعداء لعنة الله عليهم.. هنا، نستطيع الدخول إلى عواطف أم جمعة للتأثير عليها، يجب إنقاذها من براثن وحش خبيث. قلتُ: هل تعرفين شعارهم؟ قالت: ماذا تقصد؟ قلتُ لها: نحن نضع الهلال على الجامع واليهود يرفعون النجمة السداسية.. قالت: لا، لا أعرف هذا الذي تتحدث عنه. حملتُ النجمة أمام عينيها وقلت: ها هو شعار اليهود، أنت يا خالة تتعاملين مع يهودية تضحك عليك. قاطعتني: هذا مستحيل، هيا اخرجوا..

أدركنا ساعتئذ أن أم جمعة شُفيت من الحمى، وهي معنا بكامل قواها الجسدية والعقلية والنفسية، فإمّا أن نكسبها وإمّا أن نخسرها.. وهل بوسعنا

علاجها من مرض آخر خطير تسرّب إلى روحها..؟
سرطان ربيكا تحدّ لنا.. خرجنا سِراعاً وكلمات أم
جمعة تلاحقنا وتدفعنا بقوة..

في وسط الحوش التقينا ربيكا فجأة.. لم تأبه بنا..
لم تُسلم.. أخذتُ طريقها مباشرة إلى أم جمعة
وقالت: (هاي أم جُمأة..) وقفنا بجوار الباب دون أن
ترانا أم جمعة التي بان عليها الانفعال والغضب.. لم
ترد أم جمعة، فكررتُ ربيكا التحية مع شيء من
(الدلع..) كُنّا ننصت بدقة..

تنفّلتُ أم جمعة قائلة: ما هذه النجمة يا ربيكا؟
ماذا تقولين عنها؟ تسكت ربيكا من هول المفاجأة،
وصوتُ أم جمعة يعلو: هل أنت يهودية يا ربيكا؟!
تتلعثم ربيكا: أنا أنا أنا من من من.. وتجزم أم جمعة: إذاً،
أنت يهودية، وتضحكين عليّ يا ملعونة الوالدين..
حملت أم جمعة عصا طويلة فزاعَتْ ربيكا من وجهها
وهربت من زاوية إلى زاوية وأم جمعة تطاردها حتى
خرجت من الدار.. كنا فرحين للمشهد ونبتسم لهذا

النصر المؤزر، لحظتُنا أم جمعة وابتسمت لنا وكانت
في إحناءٍ ظهرها وكفها المرتجّ دعوة لنا لنعود..
عدنا..وقالت وفي عباراتها الأسف والاعتذار: الله
يخرّب بيت اليهود، (الملعونّة شيطان في ثوب آدمي..
حياة عندي بين سحري ونحري ولا أعرف..!!)
خرجت أم جمعة بهمة عالية متوجهة إلى فرنها
الذي جئنا لتصويره وتوثيقه وراحت تحطم كل
الفخار وهي (تبرطم): (يلعن أبو القروش اللي تجينا
من هالأنجاس..
كان وجهها يشعّ حياة..

الساعة الأخيرة

الساعة الأخيرة

بقيت ساعة واحدة عن ابتداء الندوة.. سأجلس هنا تحت هذه المظلة وكأنني انتظر الحافلة.. سأعد الدقائق الواحدة تلو الأخرى.. أحسست بالملل من أول شوط أمضيته مع عينيّ الراكضتين وسيل السيارات الذي لا يتوقف..

طفلة جميلة برفقة والديها نشلتني من لجة السيل. وراحت تحملق بي وتضحك ثم تهرب صوب والديها.. هي تلعب. ووجدتني كواحدة من ألعابها.. غابت الطفلة فصرفتُ نظري تجاه الشارع لألوك السيارات ووجوه الناس التي تمر مرّ السحاب.

بدأت أضواء السيارات تتفلتُ من مخابئها لحظة غياب الشمس.. سيل من الضوء واحتكاك العجلات يدهاماني بلا رحمة، لكنني على الرغم من ذلك لا أحس إلا بالصمت.. ويقىني، لولا الطفلة التي غيرت

من رتابة المشهد لقلتُ بأنني مثل (قبر الغريب) وسط
سيادة الضجيج.

توقفتُ سيارةً فارهةً من تلك السيارات التي نراها
في سباق السيارات ونزل منها شاب وفتاة انتحيا
الزاوية القصية من المظلة.. وتلفتا يمنةً ويسرة،
فضحكتُ في سري وكأنني توقعت منهما شوطاً
ساخناً من العناق والقبلات.. يرمقاني خلسةً،
فأشعرتهما بأنني غير مبالٍ بهما.. كانا جسماً
واحداً.. اقتربت الطفلة الصغيرة منهما.. ارتسم
الفضولُ على وجهها وكانت نظرتها المقتحمة
ووقوفها المتسائلة أشد تعبيراً عن فضولها.. حالة من
التربص بين الطرفين.. الشاب التزم الحياد التام..
الفتاة تبتسم للطفلة لتنتهي حالة التأزيم.. أما
الطفلة فكانت كالصنم في جمودها وكنتُ أعين
هذه المواجهة بحذرٍ شديدٍ وانتظر النتيجة.. في
حركة غير متوقعة بصقتُ الطفلة وعيناها ترمشان
بسرعة..

قام العاشقان. وغادرا المكان مثل عصفورين طارئين
هزتهم الريح..

نظرتُ إلى ساعتِي.. مضى على بدء الندوة دقائق..
هرولتُ مسرعاً بعد أن تخلصت من سيل السيارات..
القاعة شبه فارغة، وليس فيها إلا أنا وثلاثة
أشخاص.. جلستُ منتظراً توافد الحضور، ورحت
أجتر أحداث الساعة الأخيرة، وصرت أضحك وأنا
استردّ صورة الطفلة وكيف سيطرت على المظلة
وكأنها تُدير فعلاً ثقافياً..

الندوة كابوس زمني انتهيتُ منه بشق الأنفس
وخرجتُ مهرولاً إلى المظلة.. لم أجد إلا الصمت..
ابتسمت ومضيت.

الباب

الباب

الدرجُ كائنٌ متجبرٌ، لا يعطيك فرصةً كاملةً حتى تفكر.. تلّني من حيرتي وتلددي المكشوفين وجرجرني على الأربعين درجة بتلذذٍ شديد وكأنه منذ زمن بعيد بيّت شوقه لي.. لم يتوجسّ قلبي خيفةً ولا ارتجفت القدمان.

هنا، كتبتُ على ورق الأربعين خطىً سبع لم يكن عجافاً، ولم أكن فيهن تائهاً أو خائفاً أترقب.. تستدرجني الأربعون إلى فراغٍ قديم تعلو سطحاً يمتد كالخوش ويعلوها سطحٌ هو بمثابة ممرٍ للداخلين والخارجين لعمارةٍ أخرى.. الفراغ حجرة مهترئة وكان بابها العتيق منزوعاً من إحدى الأساطير، وقّع عليه الغبار حكاية السنين والعابرين وعلاه البلى حتى بدا مثل غريبالٍ شفاً عمّا وراءه.. ابتمتُ وقلت: (عُمّر الشقي بقي..)

لم يكن الباب مُعانداً وأنا أفتحه.. أدركتُ المفتاح..
انفجرتُ أحد مصراعيه بيسر وبقي الآخر في مكانه، كان
المفتاح الطويل يدور في الفراغ آنذاك ولا علاقة له
بالإغلاق أو الفتح.. سررتُ لهذا التيسير والسهولة.

انتصبتُ دارنا القديمة (أم قنطرة) أمام عيني وأن
أعابن أعضاء هذه الغرفة ومفاصلها المنسية التي
ستحتويني رداً من الزمن، هي في جبل عمان، لكنها
وراء الجدار الخلفي المتعفن المعتم لهذا الجبل.. وكنتُ
في زمن تلا أقول: لا تُغلق الفراغات على من فيها إلا إذا
كانوا أمواتاً أو أحياء نالوا حظوة في الدنيا ومتاعها..

تجتاحني ضحكة قريبة من الهستيريا وأنا أدور
كفراشة تائهة في هذه الغرفة المجردة من المقتنيات
الضرورية، وتحتاج إلى أكثر من زرفيل، لكنني شكلياً
كنت أغلق الباب بالمفتاح كلما غادرت أو أمسيت
لإشعار الآخرين بحضوري وحضاريتي..

أذكر أنني حين أركنت الأسرة الثلاثة البائسة في
هذا الفراغ اختلستُ نظرة إلى الخارج عبر شقوق

النافذة التي طبعت السنين على خشبها وحديد
توقيعات من الصدا والتشعث وكأنها رسم سريالي،
وهمستُ ساخراً: من يفكر بي في هذا الأوان؟ من
يخترق طوق الأمان الذي ظننته يمنحني شيئاً من
النوم، من يظن ذلك وأنا منزوٍ مثل عنكبوت في هذا
التيه المعلق بين السماء والأرض، ولا أعلم من تحتي
ومن فوقني؟؟

مرت سنين على غرامي بهذه الغرفة وخلالها توافدت
إليها وجوهٌ عديدة، بعضها لا يتوافق مع الآخر، وأخرى
أصادفها في الشارع ولا أبه بها حتى ولا أدعوها إلى
غرفتي، ومن أصادفهم عندي استمع منهم إلى حجج
مضحكة كصعوبة المواصلات أو عدم وجود أجرة
الفندق، أو الرغبة بالسلام علي والمبيت عندي.. وأدمنت
هذه الحجج، ومن هذه الوجوه من يعشق السياسة أو
الثقافة وهناك العاقل عن العمل والمطارد من
الشرطة، ومنهم من قلب أوراقاً كتبتها أو استهوته
قراءة كتاب أقرأ فيه ولم أفرغ منه، وبعضهم كان

عبيثاً جداً حين وجد متعته بإشعال سيجارة (من أختها) من سجائري وراح ينثر رمادها كيفما يحلو له ثم يلقى أعقاب السجائر بعد ذلك على أرضية الغرفة..

مرات عديدة، حينما لا أجد لي مكانا استلقي عليه في غرفتي أعود أدراجي إلى الشارع مرغماً وأنا أعاين الدرج منتظراً أن يغادر أحدهم كي أعود...

هزّرتني زوجتي أكثر من مرة.. وانتشلتني من أسفل الدرج.. التفتت إليها وبسمة عريضة تفتersh وجهي، قالت: هيا بنا... وبإشارة من يدي طلبت منها أن تصمت.. ترمقني مدهوشة وعيناها محمقتان وفمها من الاستغراب نصف مفتوح..

هزرت رأسي وكتمتُ ضحكة ثم أسندتُ ظهري إلى الجدار.. كانت الطفلتان تضحكان وهما تشاهدانني أدنو من باب الغرفة.. اعتدت رؤيتهما ولم يكن الأمر غريباً علي.. تلفتُ يمنة ويسرة وأنا أمدّ يدي إلى حافة نافذة الحمام لأتناول المفتاح.. أعرف أن أهل الحارة لا

يراقبونني .. لم أجد المفتاح .. صوّبت نظري ناحية
الطفلتين .. كانتا تضحكان .. ضحكاتهما قرينةٌ دالةٌ
على شيء ما .. وببراءة مذهلة رفعت إحداهما المفتاح
وهربتا .. حاولت اللحاق بهما لكنهما توارتا في إحدى
الفراغات المهترئة المكدسة في الأسفل مني ..

غرفتي بلا مفتاح .. عدت إليها ودفعت الباب بقدمي
ودخلت وفي أثناء ذلك سقط الزر فيل وتشقق الباب،
وما كان أمامي إلا شراء زر فيل جديد فلا يجوز أن
أترك الغرفة بلا إغلاق، وغبتُ ساعة وجئت بالزر فيل ..
حاولت تثبيته غير أن الباب راح يتفتت بصورة محزنة ..
تلك الليلة انتهت والباب بلا زر فيل، وفي الصباح ذهبت
إلى العمل والباب مفتوحاً ..

سكنتني الغرفة طوال ساعات العمل .. وفي لحظة
كالبرق تساءلت: وهل في الغرفة شيء مهم أخشى
عليه ؟ ثلاثة أسرة صدئة وفراش بسيط يثير الشفقة
وعدد كبير من الكتب مكدسة على منضدة خشبية

عتيقة وكرسى حديدي كالذي يُباع على (سقف
السيّل..)

عدت للغرفة من جديد فوجدت الطفلتين عند الباب
المفتوح.. خافتا.. ضحكتُ.. حاولتا الهرب لكنني
ابتسمتُ لهما وأعطيتُ كل واحدة قرشاً ك(عربون)
صداقة.. انصرفتا مسرورتين، فرحت لأنني كسبت
صديقتين سيحرسان الغرفة..

أنفاس زوجتي تحاصرني.. تململت قليلاً لأشعرها
بأنني أحس بها.. خطوات خطوات قليلة وأدركتُ رأسي
نحو الدرج.. سحبتنى زوجتي وهي تهمهم.. صرنا نذرع
شوارع الجبل باتجاه وسط البلد.. الصمت سيد المسافة
بيني وبينها.

ذلك اليوم الغارق تحت غبار السنين كنتُ قد فرغت
من تجهيز حاجات بيت الزوجية.. كنتُ فرحاً وأنا
أهبط الدرجات صوب غرفتي.. أصوات عالية تخترق
صمت الغرفة وتستقر في أذني.. وجوه جديدة احتلت
الأسرة، أحد الأشخاص كان نائماً، عرفته من حذائه..

نهض أحدهم وهو يخاطبني: نعم يا أخ ماذا تريد ؟ لم استغرب كلامه فقلت: أريد أن آخذ حاجاتي وكتبي.. قال: ومن أنت؟ قلت بحيادية تامة: أنا صاحب الغرفة.. قال: هذه أول مرة أشاهدك بها، هل لي أن أرى بطاقتك الشخصية؟ نهض الشخص النائم على الجلبة.. رأيته فهبّ مرحباً بي ومعتذراً.. هوّنتُ عليه الأمر.. قال: الأخ جديد ولا يعرفك.. قلت: لا تثريب عليك سأحمل كتبي فقط وأترك لكم الباقي، وسأخبر مالك الغرفة برحيلي.. غادرت..

على مقربة من الباب اعترضت الطفلتان طريقي.. وضعت بيد كل طفلة عشرة قروش.. بكنا وأنا اتجه إلى الدرج.. لحقتاني.. ذرفتُ دمعة وأنا أفرغ من صعود الدرجات التفت نحوهما.. كانتا تلوحان لي بأكفهما الصغيرة، فرفعت يدي لأحييهما فتلقفتها زوجتي وقالت غاضبة: هيا، نحن بوسط البلد والناس يصوبون نظراتهم نحونا..

هزرت رأسي وأنا ابتسم لزوجتي.. وفي نفسي
تلجلجت: سبّع لم يكنّ عجافاً في تلك الحارة المنسية..

مطابقة

مطاردة

حكّ رأسه الأصلع أربع مرات، هكذا قدّرتُ حينما وقف أبو أصبع بين باب العمارة والشارع، وسمعت ذات مرة من يناديه بذلك.. منذ عشرين سنة وهو يفعل ذلك، ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يأخذ بالتلفت هنا وهناك في حين كانت عيناه تبحثان عن شيء ما، وبدا لي خائفاً، لكنه في النهاية ينطلق مستعجلاً إلى الشوارع النازلة باتجاه وسط البلد يذرعها بلا توقف.

وكان بعد كل عشر دقائق يكفُّ عن المشي، ويتلفت يميناً وشمالاً مع إمالة جسمه بالكامل، ويهرش فروة رأسه حتى يتهياً لي أنها أصبحت حمراء من شدة الهرش، وفوق ذلك كان حريصاً على تشديد قبضته على كيس بلاستيكي أسود، وبين لحظة وأخرى يتفقد ما بداخل الكيس.

ألفت هذا المشهد من الرجل منذ أصبح مكتبي في الطابق الثاني من المؤسسة التي تقابل البناية التي يخرج منها.. لاحظته صدفة وأدرت ظهري له مرة أو مرتين، ومع تكرار المشهد بدأت أعيره نصف التفاتة ثم صرت أدير وجهي بالكامل، ومنذ فترة رحت أقف منزعجاً أمام النافذة العريضة أنتظرُ أبا أصبع حتى يبدأ مشواره اليومي الغريب.

لم يقف الأمر عند المراقبة والتخمين والتحليل وإنما بيّت ذات ليلة أن أتبع الرجل لأقف على حقيقته، وأعرف إلى أين تأخذه الشوارع.. أريد أن أكشف سرّه مهما كلفني ذلك من ثمن..

خرج كعادته وأخذ يمارس طقوسه اليومية.. تركت النافذة وأغلقت مكتبي وقذفتي الدرج إلى الباب الخارجي.. مر من أمامي مثل السهم وهو يلوح بالكيس.. أبو أصبع رجل أبرش الوجه، تخالط صلعته نقاط سود.. كان العرق ينزّ من وجهه.. تبعته، فوقف على زاوية الشارع الذي يُفضي إلى

الدوار واستدار جهة العمارة التي خرج منها وبدأ
رحلة الحك والتلفت وواصل المشي، خشيت أنه
سيشك بي، لكنه كما بدا لي لم يأبه كثيراً بمن
حوله.. تبعته.

كان حريصاً على أن يسلك الشارع العام مع أن
الأدراج التي يفتح عليها الشارع قد تختصر عليه
المسافة.. لماذا لم يفعل ذلك، الله أعلم؟! وقبل وسط
البلد بقليل توقف ومارس طقوسه.. لم أكن بعيداً
عنه.. خفت أن يشك بي فتشاغلت بأغصان شجرة
زيزفون حالت بيني وبينه، إلا أنه كان ينظر إلى
شيء آخر، ولم يكثر ث لي مطلقاً، فارتحت.. ومضى.

وسط البلد خليط عجيب من الناس والسيارات
والأدخنة وبصاق المارة والضجيج والروائح.. دنا أبو
أصبع من كشك أبي علي وتصفح عدداً من الكتب
ثم أسند ظهره إلى حائط البنك العربي وراح يعاين
المارة والسيارات..

وقفت بعيداً عن الكشك حتى لا يكتشف أمري أبو علي، الذي حين يضع نظارته على عينيه ليعمل جولة سريعة في الشارع وقد ينادي على صديق من أصدقائه، فربما يكتشف مكاني فينادي عليّ، ويفسد بذلك علي مشروعي.

مشى أبو أصبع نحو باب البنك خطوات ثم مال إلى حافة الرصيف ووقف، الآن، يُخرج من جيبه وردة حمراء ويشكّها في العروة اليسرى من (جاكيتته)، ثم يُزرّر الجاكيت ويبدو حينذاك مخلوقاً آخر غير الذي كنت أطارده قبل قليل.. نظر إلى ساعته مرات، وكان كلما مرّت امرأة بجواره يرشقها بنظرة طويلة يقرأ فيها تفاصيل جسمها ثم يعضّ شفته السفلى ويهزّ رأسه هزات سريعة.. كانت عيناه تتلصصان بصورة تخفي وراءها إنساناً غريباً كأنه هارب من سجن أو مطلوب بدم، أو أن إنساناً آخر تلبّسه.

يتقدم بهدوء صوب النقطة التي تتفرع منها بعض الشوارع من ساحة فيصل ويقف صامتاً بعد أن أسند ظهره إلى عمود الإشارة الضوئية، والغريب أنه لم يحكّ رأسه أو يمارس طقس التلفت.. لمحني ورماني بنظرة كتلك التي يفعلها مع الآخرين.. خفت، فتراجعت قليلاً، وكنت حريصاً أيضاً على ألا يراني أبو علي.. أنا الآن بين رجلين دقيقني الملاحظة.. اختفى أبو علي داخل الكشك فتجاوزته مسرعاً، ثم بدأت بتبطئة خطواتي حينما حاذيت أبا أصبع.. كان غارقاً في ساعته، ويطقطع أصابعه إلى درجة خشيت أن يكسر إحدى سلامياته.. كان قلقاً.. وقفتُ أمام (فترينة) ألعاب رياضية فأرى صورته في زجاج الفترينة.. نقطة اختباء ومراقبة جيدة.

مضت ساعة أو أكثر ونحن على هذه الحالة.. وفي لحظة مثل التماعه البرق خبط أبو أصبع رجله اليمنى بالأرض خبطة قوية، وضرب كفاً بكف وبدأ يلوح بالكيس بعصبية واضحة ثم يفتحه ويخرج

شماغاً أحمر وعقالاً ويلبسهما .. أبو أصبع الآن
شخص آخر.

يطأطأ رأسه، ويهمّ بالتوجه إلى الرصيف الآخر
فانزلق إلى الشارع لكنه عدل في اللحظة الأخيرة
واتجه صوب الفترينة التي انزعّت أمامها .. أحسستُ
بأنفاسه تخترق طبلة أذني .. انتظرت منه مواجهة
ولو على شكل استفسار .. كان ضائعاً، شبك يديه
خلف ظهره ومشى بتهالك واضح .. كنتُ خلفه
مثل ظله لم يغب عن عيني لحظة واحدة، وصرت بين
فيئة وأخرى أقفز إلى الرصيف الآخر وأسير موازياً
له.

جاوزنا أول إشارة ضوئية، وعند الثانية صعد الدرج
الذي يقود إلى دوار باريس في اللويبة .. لم يلتفت
ولم يحك رأسه، وقبل وصوله المبنى الذي قصده
خلع الحطة وأخفاها في الكيس واختفى وراء باب
العمارة.

عدت لمؤسستي.. توجهت إلى مكتب مدير المؤسسة
وطلبت منه أن ينقل مكتبي إلى مكان آخر.. استفسر
عن السبب، لكنني غادرت دون كلام.

تموت واقفة

تموت واقفة

في اليومين الأخيرين من الشهر الماضي، نعم، فيهما بالذات، شاهدتها تذرع الشوارع المتوازية والمتعامدة في البلدة.. تقف أمام المحلات التجارية المتناثرة هنا وهناك، و(تبصص) من وراء الزجاج.. تدخل أحياناً هذا المحل أو تكتفي بالنظر إلى معروضات ذاك، وقلما رأيته تحمل كيساً أو حقيبة يد.. عرفها أصحاب المحلات بصغر قامتها، ويديها اللتين تبدوان أطول من جسمها، وصاروا يترقبونها كما يترقبون إطلالة الصباح.

في اليوم الأول من ذلك اليومين رأيته تنزل من الحافلة على عجل، واتجهت شرقاً صوب أحد البنوك.. وقفت هنيهات أمام الباب ثم اتجهت إلى الصراف الآلي وراقبت الناس المنتظرين وأغمضت عينيها ثم استدارت لتقطع الشارع وتسلم رجلها للرصيف الآخر.. كانت ترشق المحلات التجارية

بنظرات خاطفة، وبعد ذلك بطّأت من خطواتها وهي تدنو من محل بيع الأدوات الرياضية وتسمرت أمامه.. يبدو من نظراتها أنها مهتمة بالرياضة، والذي أكّد هذا الشك تشبيكها ليديها خلف ظهرها وتركيزها الدقيق على كل مادة معروضة.. دنوتُ منها لأقف على ما يُثير اهتمامها.. أكدتُ لنفسي أن ليس هناك ما يُثير الاهتمام، فما الذي خطف نظراتها؟ وماذا يدور في رأسها الصغير؟ أهى غافلة عن وضعها اللافت كسيدة كبيرة في السن؟

واصلتُ طريقها إلى الغرب حتى دخلتُ في زحام موقف الحافلات.. ركبتُ إحداهن واختارت مقعداً منفرداً وعلّقتُ نظراتها على النافذة.. أسرعْتُ إلى سيارتي فأوقفتها خلف الحافلة منتظراً انطلاقها لأتبعها.. لا بد من اكتشاف عالم هذه المرأة العجيبة.. أمر مضحك ما أقوم به.. فيه جنون، وفيه مغامرة، ولكن فيه ارتياد لآفاق خفية لا يجسر على اقتحامها إلاّ واحد مثلي.. خجلتُ من عبارة (واحد

مثلي).. ربما يكون هناك من يفعل مثل ما أفعل..
لست متفرداً في هكذا مغامرة، والسيدة إياها تستحق
هذه المغامرة.. الحافلة تنطلق.

في المحطة الثالثة توقفت الحافلة ونزلت السيدة..
سلكت أول شارع عن يمينها.. كانت تمشي بخطواتٍ
سريعة.. حدثتني نفسي أن أقف بمحاذاتها وأطلب
منها لأوصلها لبيتها.. قد توافق، ولكن لو رفضت
سأكون مُخرجاً وسأضيق عليّ متعة اكتشاف
أمرها.. أقنعت نفسي بأنها سترفض وفضّلتُ
متابعتها من بعيد حتى تصل بيتها.. وماذا بعد أن
تصل؟! هل سأدخل البيت أيضاً؟ هل انتظر؟ قد
يطول الانتظار؟ أمرٌ مضحك.. تجاوزتها فلم أَرِ في
نظراتها ما يربيني.. كانت محايدة تماماً وكأنها
ميتٌ هارب من مقبره..

أخيراً، وقفتُ أمام أحد الأبواب وغابت خلفه..
انتحيت جانباً وأوقفت سيارتي.. بعد عشر دقائق

بالتمام خرجتُ، وسلكتُ الشارع نفسه.. ركبت إحدى الحافلات وعادت أدراجها إلى حيث كانت قبل قليل.. هذه المرة اقتربتُ منها أكثر.. وقفتُ أمام المسجد وصعدتُ نظراتها إلى مئذنته.. كانت الشمس تعانق الهلال، فأغمضُ عينيها نصف إغماضة وتمتمت بأشياء كثيرة.. ماذا تقول؟ الله أعلم.. عادت إلى الأرض وواصلت المشي.

هاجمتها ذبابة كبيرة، فطاردها مرات، وفي كل مرة تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللئيمة لم تجدُ غيري حتى تُثقلَ دمها عليه.. إذاً، هي تنطق مثل خلق الله! فما قصتها؟

دخلتُ أحد المتاجر القريبة وتناولت عبوة ماء صغيرة وشفطت ما فيها دفعة واحد.. جلستُ على عتبة أحد المحلات المغلقة وأسندت ظهرها إلى الباب وألقت رأسها بين كفيها وراحت تذرف الدموع بصمت مهيب.. طال وقوفي، وطال جلوسها.. الشمس

الغاربة تلقي بظلال العمارات على وجه النهار..
الدموع كلمات ذات معانٍ في حكاية طويلة..
نهضت السيدة وسلكت زقاقاً قريباً أوصلها إلى
الشارع الصاعد صوب بيتها.. لم تُوقِفْ حافلة..
كانت مطأطئة الرأس محدودة الظهر.. وحينما
رأت مآذن المسجد القديم رفعت رأسها وغدّت
الخطى.. سبقتها إلى الشارع الذي يقبُع على جانبه
بيئُها.. لحظات وتختفي وراء الباب..

في صباح اليوم التالي انعطفتُ بسيارتي جهة
بيتها.. كان هناك جمع كبير عند الباب.. دخلت
بين الناس لأستطلع الخبر.. قال أحدهم: الله
يرحمها، ماتت البارحة حزناً على ولدها الوحيد،
كان رياضياً ماهراً.. وقال آخر: لم تكن مريضة،
شاهدتها أمس تذرف الدموع في المكان الذي مات فيه
ابنها.

نَزَتْ دمعة من عيني.. استحضرت صورة السيدة وهي
تمضغ شوارع البلدة بنهم.. مضيت دون أن ألتفت.

انسان...

اثنان...

بعد الفجر...

بعد كل فجر يعمدُ إلى فكِّ ثُرس الزمن من
سجن وقاره وحبال شبيهه، ويتحرر من حضرة النُّور
ليهمم على وجهه دون حساب.

يغشاه الصباح وهو يقلِّب بين جفنيه المرتعشين
أشعة الشمس كمن يريش سهامه لاقتحام بريّة
المدينة بحثاً عن شيء ما..

لا توقفه عن مبتغاه التسبيحات التي أودعها
المحارب، ولا الشيب الذي غزا فؤديه وكلل لمته
بالوضاءة من أن يحرك عينيه في كل اتجاه مثل
ضفدع يبحث عن أنثاه..

ما بعد الفجر، مسرح من الدنيا كالضحى من
النهار، يزدحم بكل زينة، ورغبة متفلتة.. يتخلص من

أربطة مسجد الحي وينحدر إلى قاع المدينة.. يوقف
سيارته في زقاق آمن ألفه من عشر سنوات.

وقاره ما زال يلاحقه وكأن أثراً من روح المسجد
عالق به.. يحرص كل الحرص على هندامه، ويُعدّل
شماغه وعقاله ليبدو دائماً أكثر شباباً.. بدأ يتابع
خطوات الناس من حوله.. ينزلق إلى الأرض من
سيارته وعينه على الشارع.. ازدحام وضجيج.. يقف
مُطلياً بإحدى الزوايا زمنياً..

عيناه تمسحان الشارع بعناية ويدقق في كل ما
يدرج عليه من بشر وسيارات.. يألف المكان ويعشقه
ولا يحس بدفع الحياة إلا حين يعانقه.. حرارة لذينة
تتسلل إلى عينيه وتجتاح باقي جسمه، ومثل أفعى
تغشاها الشمس يبدأ بالهات خلف أفضية النساء
ويتوغل ما بين عيونهن وصدورهن.. يتعوذ من
الشیطان الرجيم ويلوم نفسه على هذه الفعلة
المشينة.. أيعود إلى سيارته ويهرب من المكان؟! زينت
له نفسه أن يتمهل قليلاً، دقائق فقط.. بعد أن تمر

تلك المرأة سأمضي.. خجل من هذا الخاطر المؤذي..
لا، لا، سأصلي الظهر ثم أغادر..

دنا من المسجد الكبير.. صدّ رغبات عاصفة لملاحقة
أرداف النساء.. ينشغل بالهاتف حيناً ويستغفر الله
أحياناً أخرى، ثم يفده هذا العناء حينما أحدق به
عطر امرأة مرت بجواره.. يخرج من لجة الحيرة
فغشّى نفسه ما غشّاها.. اختلس نظرة وأختها
وأتبعها بأخواتها الأخرى.. مؤخرتها تمسك بعينيّه
وتجره خلفها.. تمعّر وجهه مستنكراً، ولعق شفثيه
الناشفتين وشم الشيطان بضراوة..

سؤال مباغت يسيطر عليه: يا ثرى أتجوز صلاتي
بوضوئي السابق، أم أتوضأ من جديد؟ احتار في
الأمر.. قرعت ذهنه فكرة جريئة وهي الذهاب لشيخ
المسجد، واستفتاؤه في هذه المسألة.. لكن المحير هنا
هو كيف يسأله، أيقول له: أنا ألاحق النساء
وأعشقهن، وأسرح في مفاتنهن.. أم يعلّق السؤال على
لسان رجل سأله ولم يستطع إجابته.. لا، لا، أنا رجل

مسن وأكبر من الشيخ بعشر سنين.. ولا يكون
بوسعي فعل مثل ذلك.. هذه فضيحة كبرى..
خجل من نفسه حين نظر إلى السماء، وذهب مسرعاً
إلى مكان الوضوء ليقطع الشك باليقين.

الماء الذي يتخلل شعر ساعديه ورأسه لذيذٌ
ومنعش.. حوار نسائي ينقذف إليه من الخارج فيشدّه
إلى الشارع.. لا يدري أين صار من الوضوء.. الشيطان
يتقاذفه بلوؤم.. تعوّد منه مرات عديدة حتى تأكد من
أنه أتمّ وضوءه.. خرج والماء يتناقل منه، وكان من
الأسلم له لو دخل المسجد من الباب الداخلي الذي
يربطه مع مكان الوضوء، إلاّ أنه وجد نفسه في الشارع
عند الباب الخارجي للمسجد..

لم تفاجئه العجربة الشابة.. كانت له بالمرصاد..
جنية تخرج من الشقوق والزوايا.. حاول تجنبها لكن
الخبیثة اختارت زاوية حادة صعبت عليه تجاوزها دون
أن يدقم بها.. عيناها الزرقاوان تلمعان بوميض
وحشي وقوامها الأهيف يهتز بإغراء شيطاني..

النداء للصلاة.. تقترب منه الغجرية وبين شفيتها
بسمة خبيثة فيها إغواء واستدراج.. تدقمه بكوعها..
يتملص منها وهو يرمقها بنظرة مستنكرة.. هي بنت
حلو وجريئة، يتعوذ من الشيطان الرجيم مئات
المرات.. صوته واثق: انتظرك بعد الصلاة.. تتعثر
خطاه، ويداري صرخة من أعماق روحه: أنا شيخ
كبير يا رب، ما هذه البلوى، عفوك يا الله...!!!
يتدافع مع المصلين.. الإمام يقرأ فاتحة الكتاب..
يهرب إلى رحاب الله وتشده السماء بكل حروف القرآن
إلى الطمأنينة.. تصطدم إحدى عينيه بنافذة
مفتوحة من نوافذ المسجد.. العين تميز المرأة من
الرجل بسهولة.. يطاطيء رأسه ويغلق جفنيه ويعيده
الإمام إلى الصلاة.. سطح نفسه الأملس يزحلقه إلى
النافذة.. الغجرية شيطانة مغناج يرى خيالها مع
كل المارة.. يطردها من خاطره مراراً.. أخيراً يسلم
الإمام ويتنفس المسكين الصعداء.. تتحرر نفسه من
مكابدة العذاب.. يحاول مقاومة رغبته بالخروج..

يظل في المسجد مدة أطول، ويتساءل: وإلى متى
يطول به هذا الفرار؟! علي أن أخرج.. يحشر جسمه
بين المصلين ويلتقط حذاءه.. عينه على الباب
الخارجي.. العجرية ملتصقة بالباب.. عيناها ملقط
حاد يمتد إليه..

استدار إلى الخلف وأسرع صوب الباب الداخلي
الذي يفتح على مكان الوضوء.. يخرج منه.. يتنفس
مرتاحاً لأنه دحر من نفسه شبح العجرية وتخلص
من مصيدها.. سعال نسائي متواصل يستقر بإذنه..
يلتفت.. إنها هي تتبعه مثل ظله.. تغمره بجرأة..
تسبقه إلى السيارة.. يهرب منها إلى زقاق آخر وينتظر
فيه طويلاً، وبحذر شديد يتسلل إلى حيث أركن
سيارته.. كانت العجرية تتكئ على مؤخرة السيارة
وتنتظر.. قوامها جميل وإذا استدارت يرتج ردفها
فيهتز معها كل جزء في جسمها..

تذكر ابنته الكبرى وأولادها.. تنال عليه صور
بناته وأخراهن التي تزوجت قبل شهر.. يخجل من

نفسه.. يتصبب عرقاً.. يصرخ: يا رب، يا رب أستغفرك
يا الله! تقدم من سيارته.. حاولت الغجرية الإمساك
به.. دفعها بشدة وهو يستقر وراء مقود السيارة..
يغادر بسرعة دون أن يلتفت إلى الخلف..

جماعة

جمجمة

عصاه تبحثُ في الأرض، وتعزق الحصى، شرقاً
وغرباً، هذه عادة قديمة ورثها من أبيه الذي رافقه
دهراً في رحلة البحث عن الكمأة كل عام، وورثها من
جده وأسلافه الذين يصعب حصرهم..
في الصحراء تغور الأسرار تحت الرمل وتغرق في
زنازن الصمت ودهاليز اليلى، ولا تكشف لك عن
نفسها بسهولة..

هو يعرف أن الصحراء لا تنقاد طواعية لمن يأتيها
متطفلاً.. حذرة جداً، لذلك تُسلط على المتطفل
سياط الشمس فتشويه وتنهشه بأنياب حداد لاهبة
وتطلي لسانه بالعطش.. فإمّا أن يمضي متحدياً إن
كان ملك أعنة الصحراء.. وإما أن يستسلم ويدوب
تحت الرمل طعاماً لمالك الغموض..

يعرفُ تماماً صلف الصحراء لكنه ابنها الذي أرادت
له أمه أن يظل مرتبطاً بها لذلك رمت سرّته في
مكانٍ ما فيها، فأدرك من عشقه للصحراء بأنه
ملتحم مشيمياً بكل حبة رمل من رملها بعد أن فارق
رحم أمه..

انغrust العصا في كوم أمامه وغاصت في أعماقه
فاندفعت جمجمة إلى الهواء ثم ارتدت هابطة
لتستقر بين يديه وصدره.. جفل، وخاف، ثم رماها،
فعادت إليه.. أهو في حلم أم في يقظة؟ لفتّه حيرة
مذهلة.. ليس من أحدٍ حوله.. لا صوت إلاّ عريدة
الفراغ، ولا خوف إلاّ من الهدوء الذي بسط دولته
على المكان..

السراب يتماوج ويتلألأ فوق حصباء ممتدة غسلتها
الشمس بحمامها اللاهب.. السراب إغواء لعين
للظمآن.. وأنا اعرف عرائس السراب فلا اغتر
بنداءات الأمل..

تهتز الجمجمة وتنطق بصوت لا أدري من أين
غشّاني.. من أنت؟ رميتها بعيداً فارتدت إليه سريعاً..
السؤال هو السؤال، وهل يملك جواباً على سؤال
موجة من جهة خرافية الأبعاد؟ تهتز مرات وتعيد
السؤال.. ومن يجيب؟ هي والهواء والرمل وووو سواء
بسواء.. لظن للهواء صوت محسوس وللرمل وجود
لملموس.. وليس لصوت الجمجمة كينونة حيّة
حتى يجيب على سؤالها إجابة المقتنع.. ليجرّب
ويجيب والعاقبة لمن يصمد: أنا فلان بن فلان.. له
صوت ولكنه ينقذف من الصمت.. ما هذه البلوى؟
تنطلق الجمجمة عالياً وعيناه تتبعها مرعوبة..
حاول الهرب ليخلص من هذه المحنة لكن قدميه
كانتا مثبتتين في الرمل.. تعود إليه الجمجمة وهي
تردد: أما أنا فمن زمن سحيق قذفني سيل الدنيا إلى
هذه الصحراء.. أحقاب تعقب أحقاباً على وجنتي،
وأرصد على ورق الهواء وحروف الرمل أنفاس من
مروا من هنا.. وأسجل تنهيدة لهذا الفارس أو لتلك

الصارخة أو لسنا بك خيل أو لخفاف جمال.. أنا هنا
اقفز من حفرة إلى طف جبل بعد ان احتملت عواتي
الريح قبرَ صاحبي بعيداً عني وظللت هائمة على
وجهي أروي للسايرين والمدلجين ما خُطَّ على شفتي
الصحراء من أسرار، عالم لا تراه أنت يخرق مني
المحجرين والحنكين والخياشيم التي تعايشت مع
تعاقب الليل والنهار وأدمنتُ تهارش جحافل الدود في
من كل فجٍّ عميق..

تسخن الجمجمة وترتفع حرارتها حتى لم يعد
بمقدوره احتمالها فيقذفها بعيداً ويهرب.. يرتطم
رأسه بالسريـر ثم بزوجته التي خافت منه كثيراً..
يفتحُ عينيه بنظرات زائغة ويتلفـت خائفاً.. أشعة
الشمس تسكب حرارتها على وجهه.. يُرسل زفيراً
طويلاً وينهض من فراشه مرتعشاً.. لحقته زوجته
وعلى شفـتيها سؤال.. ابتسم لها وأخذها بين ذراعيه
بحرارة..

كدمعة عليها...

دمعة عليها...

تباطأت خطواته وارتمى جسده، ثم غطتُ جبهته
العريضة حبّاتُ عَرَقٍ.. انتحى حينذاك إلى بئر قريبة
وجلس على حافة بابها الحجري وراح يعبث بالتراب
تحت قدمه اليمنى..

التفتنا جميعاً صوبه، والتهمناه بعيوننا.. سؤال
واحد في العيون: ماذا به؟

لم يجرؤ أيُّ منا على الاقتراب منه وفهم ما أصابه..
كنّا نراقب من بعيد، ونستطلع حقيقة الأمر بعيوننا
المتسائلة.. التزمنا الصمت تماماً.. باب البئر دفتر
قديم يتنهد بسطوره اللامعة من القاع..

قفزتُ من عين فيصل دمعةٌ حارقةٌ استقرتُ على
خده، وراحت تحضر لمعاناً مُغرياً.. هرعتُ إليه وجلستُ
أمامه واضعاً كفيَّ على رُكبتَيْهِ وصوبتُ عينيَّ إلى
عينيهِ.. كان ينشج بألم وحُرقة..

رَجَّحْتُ بَأَن وراءَ دموعِ فيصل قصة مؤلمة.. لم أسأله
وإنما تَشَرَّيْتُ أَلَمه فارتعشتُ خائفاً.. هممتُ بتركه
لكنه جذبني من كتفي وأشار إليَّ لأُظِلَّ جالساً، هنا
أَحسستُ بِحاجته المُلحَّة لِإنسانٍ يفرغ بين يديه من
مخبوءه الدفين شحنة ثقيلة..

أعدتُ عينيَّ إلى الدمعة المتشبثة بخده.. كنتُ
أنتظر أن ينشق عن كلام.. فمه المتيبس يتململ
ببطء شديد.. عيناه الذابلتان حائرتان فوق وجهي..
دمعته تكبر، وصوته المتقطع يتسلل من شقوق فمه..
كلماته الواهنة تنقذف من جوف البئر: فقدناها
خلال ساعة.. تلك الساعة كانت قياماً بكاملها..

راح يبكي مثل طفل.. لم أَلَف منه هذا.. عرفته
صلباً صارماً حتى ظننتُ أن هناك جفوةً بينه وبين
مشاعره.. كان غريباً حقاً.. أدنى وجهه من وجهي،
ثم رفق أصدقاءه بنظراته الذابلة فضاقت حوله
الدائرة.. فمه فوهة بركان:

افتقدناها تلك الساعة.. كنا كالصرعى في
مكان غريب.. فتشنا الدار والزوايا التي تُحبُّ الجلوس
فيها.. لم نجدها..

كالعاصفة التي تباغتكَ فجأة انطلقنا إلى
الخارج نبحث عنها، ننادي في الأحواش القريبة
والسطوح المتلاصقة، ذهبنا بعيداً إلى الكروم وحقول
القمح.. نادينا: نهى، يا نهى، يا نهى.. أين أنت يا
نهى..

ما من مجيب!
قالت أُمي المُلتاعة: لعلها نائمة في مكان ما..!!
كلنا استبعد موتها..

الرعب غول أرعن يطلّ من عيون الجميع.. جلبة لا
مثيل لها في القرية الوادعة.. كل الأمكنة التي نتوقع
وجود نهى فيها فتشنه جيداً.. الصمت بومٌ قبيح
جثم فوق الوجوه..

دمعة فيصل تهتز مع كل تنهيدة وتظل متشبثة
بخده.. يتلفت يمناً ويسرة..

كنتُ في العاشرة من عمري تلك اللحظة.. نهى
أصغر مني بأربع سنوات.. كانت جميلة جداً مثل
لعبة.. تعلقْتُ بها فتعلقْتُ بي أكثر.. صرنا روحاً
واحدة موزعة على جسدين.. في تلك اللحظة
القاتلة صرختُ: الضبع، هي الضبع التي أكلت
نهى.. الضبع يا ناس.. وأبعدني جدي عن مجلسهم..
قال أحدهم بهدوء: النُّور! النُّور سرقوا البنت..
فهرع الجميع إلى خرابيش النور القريبة، وفتشوها
بلا وعي وهم ينادون: يا نهى، اخرجي إلينا.. لكن لا
أحد يجيب..

تتوارى الشمس بخيوطها المحمّرة وراء التلال
الغربية.. كل الأمكنة فتشناها.. دنا احدهم من
البئر وأشار إلى فوهتها الصامتة وقال: هنا، هنا...!!
ضرب فيصل على حافة البئر أكثر من مرة،
والتفت مرعوباً إلى فوهتها، وقال: تحلّق الرجال
والنساء حول البئر.. أمي شبه مجنونة.. وقفت عند
البئر ونادت.. صدى صوتها يلتف على ألسنة

الجميع.. تفقدُ أُمي وعيها فتسحبها النسوة إلى
داخل الدار..

رفع جدي صوته المتقطع: فتشوا عن غطّاس.. ندرَ
شاب كالسهم من بين الواقفين وطلب حبلاً وضوءاً،
وأنزلوه إلى جوف البئر.. القلوب بلغت الحناجر..
العيون المتلصصة تجوب صفحة الماء الملتمة وكأنها
تتوقع شيئاً مؤلماً.. البئر اللئيمة تخفي أسرارها.. أبي
المهلوف يرفع كفيه للسماء ويجهر: يا رب.. النساء
يبكين بجزع..

الشاب في أعماق البئر أملٌ منتظر.. صوت الماء
يحرّك الفضول.. الكل يتلهف لشيء سار.. ينادي
الشاب: (انشلونى..)

وجهه كالح.. ممتقع.. عيناه تدمعان.. بين يديه
طائر ميت، ويصرخ بكل جسمه: لم أجدها...
وينسحب فوراً وهو يقول: فتشوا في مكان آخر..

احتار الناس وكان الهلع سيد اللحظة.. نظرات
جدي شككت في كلام الشاب فقال: يا رب حيّة أو

ميتة، المهم أن نجدها.. يبتعد الناس عن البئر..
بعضهم غادر، وبعضهم أبقاه الخوف والحيرة قرب
دارنا.. الظلمة تزداد.. صمت مطبق يخيم على
المكان.. ونهى سرُّ من الأسرار..

عاد الشاب خلصة.. كان جدي يحملق بالبئر
بعدوانية.. اقترب الشاب من أبي وأمسك بيده وجرّه
وهمس بإذنه.. رجعا سريعاً إلى البئر.. الشاب يتأهب
للنزول مرة أخرى.. دموع جدي تختلط بتهيّداته..
والذي يشد الحبل جيداً.. اقتربتُ من جدي وأمسكت
بيده فضمني إلى صدره.. نادى الشاب: انشلوني..

وجه نهى ناصع البياض.. ملائكي القسمات..
شعرها مبللٌ بالماء.. فستانها الأصفر يلتف حول
جسمها فيزيدها بهاءً.. رأسها يتأرجح على ساعد
الشاب.. صرختُ بشدة: أختي نهى.. حاولت الوصول
إليها، فأمسكني جدي بقوة.. انقضّت أُمي مثل نيزك
وخطفت نهى من بين يدي الشاب ودخلت بها غرفتها
وحضنتها بشدة.. كانت أُمي صامتة تماماً.. اقتربت

من أُمي وارتميت على كتفها وطالعتُ وجه نهى..
عينها الخضراوان فيهما بقية نداء.. سحّت دموعي
بلا استئذان..

الناس حلقة من الدموع والنشيج.. جدي بقي عند
البئر يداري دمعاته.. والذي أخفى وجهه بجدار دارنا
وراح يتنهد دون توقف...

أغمضَ فيصل عينيه وبكى بألم.. الدمعة المفترشة
على خده تسحّ إلى أسفلِ ذقنه.. أشبك أصابعي
بأصابعه وأشدّه ليقف.. كان منهكاً ونحن نغادر
البئر.. عيناه الدامعتان لم تبارحا فوهة البئر..

الدو

الدلو

تجمّع الذباب على الدلو بكثافة..
الناس يتجمعون حول الدلو بكثافة، ويتصايحون..
الكلاب تتوارد من بعيد إلى الدلو وتنبح..
داحس والغبراء تقفز من عمق التاريخ..
الناس والذباب هائجون.. الكلاب عيونها مفتوحة
ومصوبة تجاه الدلو..
صاح أحدهم: كلبكم أكل (المصارين) من دلوي.
وصاح الآخر: الدلو ليس لك.. هو لي..
تراشق الناس الحجارة والكلام.. الصراخ يملأ
فضاء القرية..
سال دم كثيراً.. تكاثر الدم على الدلو وعلى وجوه
الناس المستشرفة..
كلاب القرية تقترب من الدلو.. تقترب.. تقترب..

حضرت الشرطة وأطلقت قنابلها المسيّلة للدموع..
تفرّق الناس .. والذباب كتلة سوداء وعيون الكلاب
الدامعة تلتهم الدلو..
نوت الشرطة حبس الناس، لكنهم تصالحوا.. تناثرت
البسمات بينهم كالحلوى..
الدلو مائدة مباحة لكل كلاب القرية..
الشمس تغيب.. يختفي الذباب، وتهداً الكلاب..
الأبواب تُغلق والهدوء يُطبق..
الدلو وحده في ساحة القرية يستقبل الليل..

البهلوان

البهلوان

جالسَ كل النساء في الندوة الأدبية.. وأظهر
لهن انه (الزغرت) الوحيد بين كل هؤلاء الذين
يتسمون رجالاً.. تغزل بهن جميعاً.. أطلق لكل
واحدة منهن نكتة.. وصفهن كلهن بالجماليات
الفاثات.. وجهه مكتنز بتعابير يُواجه بها كل
امرأة تصادفه.. وكان يلتقط الصور لهن بنهمٍ
شديد..

أهدى كل واحدة منهن نسخة من كتابه..
كنّ يتصفح الكتاب بسرعة.. تبادلن الغمزات،
والإشارات، والضحكات..
وقفن فجأة..

تركن نسخ الكتاب المهداة على كراسيهن..
همست إحداهن بأذن أخرى: سخيـف!
استفسر: أنا؟

قالت وهي تقهقه: لا، الكتاب..

مدّ لسانه وصرخ: ما الفرق؟!

انفضضن من حوله سراعاً..

الآن ليس حوله أحد.. وحده يرقص بين الكراسي

كالبهلوان، كالمسحور، ويضحك بهستيريا.. ليس

حوله أحد.. نادى.. لحقهن..

صددنه وأغلقن الباب بوجهه.. يضحكن بشدة..

يبكي بحرقة..

عاد إلينا مهشماً.. كنا صامتين.. أشحنا

بوجوهنا عنه..

حملتُ قلمي ورحتُ أحضر في وجهه.. كان سلساً

على الورق..

ابتسمتُ حينما انتهيت.. في حين كان شخيره

يملاً المكان.

هروب

هروب

كانت هاربة منهم..

طولها فارع.. ردفاها مهتزان.. ساقاها جميلتان..

مشيتها مثيرة..

لحقها الأول، فالثاني، فالثالث، فالرابع.. جمهور

كبير يلهث وراءها.. كل واحد يسعى ليرى وجهها..

البرقع حائط صلب..

تضايقت جداً.. وقفت.. ببطء شديد رفعت برقعها..

كانت العيون المتلصصة تأكلها.. سال لعاب

البعض.. والبعض الآخر تقدم خطوة أو خطوتين..

لكن..

قفز إليهم أنف مشروم، وشفة أرنبية، وأسنان

متأكلة، وبشرة برشاء..

هرب الجميع..

ضحكت ومشّت مطمئنة.

سنة

حَسَناء

سألني أولادي خلال نصف ساعة مئات الأسئلة..
أين دار الحجة حسنا؟ ما شكل الدار؟ كم عمر
الحجة؟ وكنت أقول لهم: اصبروا عليّ قليلاً، الدار
قريبة..

ها نحن وصلنا الآن..

أوقفت السيارة ونزل الأولاد، وسأل أصغرهم: أين
الباب يا أبي؟ قلت مبتسماً: ها هو الباب.. ادخلوا.
مئات (سطول التنك) في طريقنا، الجدران معتمة،
الضوء خافت، صوت ضعيف يرحب بنا: يا مرحبا،
ادخلوا..

أنا اعرف أين تجلس، أولادي يبحثون.. اقتربنا من
مصدر الصوت.. كل شيء أسود في ما عدا بياض
عينها وأسنانها..

قلنا: مرحباً يا خالة حسنا.

قالت: أهلاً بكم.
أعطيناها ما كان معنا وانصرفنا..
نظر إلي اصغر الأولاد وهو يبتسم وسأل بخبث: ما
اسمها يا والدي؟
قلت بحزم: حَسَناء.
أطبق علينا صمت مُخْرِس، وركبنا السيارة، وقلت:
زوجها شهيد، وابناها شهيدان.. وتفرح حين يأتيها
الأطفال.. ابتسم أولادي ففرحتُ.

کرناس

درياس

كان إبراهيم يقود (درياس الأعمى) حاملاً نزلاً من
الحافلة.. تلفت حوله واحتار أي الطرق يسلك، إلى
اليمين أم الشمال؟
سار على غير هدى..
إبراهيم والحيرة تكتنفه: تهنا يا درياس..
درياس: في أي طريق نحن يا إبراهيم؟
إبراهيم: لا أدري..
درياس: أعدنا إلى موقف الحافلات..
إبراهيم: وماذا تريد أن تفعل؟
درياس (يضحك): أعدنا وما عليك! سبحان الله تائه
أنت وتجادل..
إبراهيم (مسلاً): ها نحن نقترّب من الموقف..
درياس: اجعل الشمس على يميني وامش ورائي..
إبراهيم يتبع درياس..

الناس من هنا وهناك: أعمى يقود بصيراً
درياس: نحن نقترّب من الباب.. هيا.
إبراهيم يقرع الباب ويدخلان..

المؤلف في سطور

- عضو رابطة الكتاب الأردنيين وعضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
- رئيس منتدى جماعة درب الحضارات الثقافية
- صدر له:

- 1- (أبو المكارم)، قصص للأطفال / 1980.
- 2- (المسافات الطامئة)، قصص، بدعم من وزارة الثقافة / 1993.
- 3- (خرمان)، قصص، دار الينابيع للنشر والتوزيع وبدعم من وزارة الثقافة / 1994
- 4- (الرياحين)، مسرحية، مأخوذة عن مقامة الرياحين للإمام السيوطي / رابطة الكتاب الأردنيين / 1996
- 5- (الأولاد و الغرباء)، قصص للفتيان / 1996.
- 6- الطفل في الحياة الشعبية الأردنية - دراسة - وزارة الثقافة / 1997 . وسنة 2009 لصالح مكتبة الأسرة

- 7- معجم أسماء الأدوات واللوازم في التراث العربي، وزارة الثقافة، 2000
- 8- (حكاية الكلب وردان)، رواية للأطفال 2000/
- 9- (رحيل الطيار) قصص/أمانة عمان الكبرى/2001
- 10- السجل المصور للواجهات المعمارية التراثية في الأردن/ قسم الكرك- دراسة- أصدرته جامعة مؤتة ومؤسسة إعمار الكرك/2002
- 11- الوطن في المأثور الشفاهي العربي - دراسة/ 2006
- 12- فلسطين في الشعر الأردني، دراسة نقدية، اللجنة العليا لإعلان عمان عاصمة الثقافة العربية/ 2002
- 13- (ذات الوداع)، قصص، دار أزمنة، وبدعم من وزارة الثقافة، 2003
- 14- (من دفاتر النساء)، نصوص أدبية، بدعم من

وزارة الثقافة، 2007

15- (وشم الصباح)، قصص قصيرة، منشورات

أمانة عمان الكبرى/200

16- (نقوش على كف الأبقوانة) مقالات،

أمانة عمان الكبرى/2010

17- محافظة الكرك، موسوعة الأرض والإنسان

. دراسة تاريخية . جمعية أبناء الجنوب الخيرية،

2011، وطُبع هذه السنة 2014 لصالح مكتبة

الأسرة.

18- فرج نافذة النهار، قصص، بدعم من وزارة

الثقافة، 2011

19- السجل المصور للواجهات المعمارية التراثية

في الأردن . قسم معان، معان مدينة الثقافة الأردنية

لعام، 2011

20- (ندهة الستين) نصوص أدبية، وزارة

الثقافة/2013

21. الشمس من جديد، قصص، مشروع التفرغ
الإبداعي، وزارة الثقافة، 2014

المحتويات

7	دَفْ في الكرتونة
19	عيون على الطريق الصحراوي
27	ليالٍ بلا دَفء
37	كان في الزويدة وحيداً
43	ابن جدعان
53	رييكا.. لن تعود!!
67	الساعة الأخيرة
73	الباب
83	مطاردة
93	تموت واقفة
101	اثنان
111	جمجمة
117	دمعة عليها
127	الدلو
131	البهلوان
135	هروب

139

حسناء

143

دزیاس